

من وحي الحياة



أ.د. محمد رفعت أحمد زنجير

من وحي الحياة

مجموعة مقالات فكرية وأدبية واجتماعية متنوعة

تساعد الطلبة بشكل عام، وطلبة الثانوية والجامعة بشكل خاص على كتابة التعبير الجميل بأسلوب موضوعي خارج حدود الموضوعات التقليدية وتساعد على تقوية الأسلوب والاستشهاد بالمأثور والمنظوم في قضايا معاصرة بشفافية واعتدال.

بقلم:

أ.د. محمد رفعت أحمد زنجير

دار اقرأ

دمشق ٢٠٠٦م

الترقيم الدولي: ISBN 9948-8541-0-0

بسم الله الرحمن الرحيم

(إن أُريدُ إِلَّا الإصلاحَ مَا استَطَعْتُ وَمَا
تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

(هود: من الآية ٨٨)

مقدمة

يعاني الطلبة اليوم في مختلف مراحل الدراسة من ضعف عام بمادة اللغة العربية، ولذلك أسباب كثيرة، منها ما يتعلق بالمناهج الدراسية، ومنها ما يتعلق بالمعلم، ومنها ما يتعلق بالطالب. فالمناهج الدراسية فيها حشو كثير، وتفصيل ممل لقواعد النحو، وهي تحتاج إلى تعديل واختصار، فالطالب الذي يصل إلى الجامعة وهو لا يميز الاسم من الفعل من الحرف، كيف نحشو عقله ببقية قواعد النحو والصرف التي تحتاج إلى عقلية متفتحة لا تقل عن عقلية دارس الرياضيات والعلوم؟. أليس الأولى أن نركز على أسس النحو ليخرج الطالب منها بشيء بدلاً من التركيز على تفصيلاته الكثيرة، والطالب يخرج في النهاية بلا شيء؟

والتعبير ثمرة دراسة اللغة، ولكن معظم الطلبة لا يجيدون التعبير في أبسط الموضوعات، وفي جلسة مصارحة ومكاشفة مع بعض الطلبة، قال لي أحدهم: إن موضوعات التعبير التي درسناها من الابتدائية حتى الثانوية كلها مكررة، مثل: وصف رحلة، رسالة إلى صديق، بر الأم، يوم العيد، اليتيم، عيد الشجرة... إلخ، وما قاله هذا الطالب هو جزء حقيقي من المشكلة، فتناول الموضوعات التقليدية، وتكرارها عبر سنوات الدراسة، يجعل الطالب محدود الأفق، ضعيف البيان، جامد الحس والخيال.

ومشكلة التعبير تنعكس آثارها على حياة الطالب كلها فيما بعد، وليس على درس الإنشاء وحده، وذلك لأن صاحب الملكة التعبيرية يكون أكثر نجاحاً في تواصله مع المجتمع من غيره.

ولمعالجة مشكلة ضعف التعبير علينا أن نوجه الطالب للكتابة خارج الموضوعات التقليدية، وعليه أن يجرب، وعلى الأستاذ أن يساعده، وهذا الكتاب: (من وحي الحياة) جاء خطوة في هذا الصدد، ليساعد الطالب والمدرس على انتقاء موضوعات جديدة من مدرسة الحياة، هذه الحياة التي تفيض علينا كل يوم بجديد، وتلهم عقولنا وتثير أخیلتنا بما فيها من مفاجآت وتقلبات ومستجدات وأحداث، إنها مدرسة كبيرة بل لعلاها أكبر مدرسة على الإطلاق نتعلم من خلالها الكثير الكثير في رحلتنا الممتعة والمخزنة على حد سواء من المهدي إلى اللحد! ففي المهدي يكون الفرحة، وفي اللحد يكون الترح، وهو أضعاف الفرحة على حد قول أبي العلاء المعري:¹

إن حزنا في ساعة الموت أضعا

ف سرور ساعة الميلاد

وقد جاء هذا الكتاب بأسلوب سهل ميسر، مع الشواهد المناسبة من المأثور والمنظوم كلما اقتضت

الحاجة ذلك، وقمت بضبط تلك الشواهد.

¹ - تاريخ الأدب العربي، للزيات، ص (٣١١)، الطبعة الخامسة والعشرون

إن ثورة المعلومات وعصر العولمة ينبغي أن تخرجنا من الأساليب التقليدية البالية في التعليم، فالطالب اليوم يرى العالم كله بين يديه على شبكة المعلومات، ولا يعقل أن نتعامل معه بنفس الطريقة التي كان أجدادنا يتعاملون معه، وندور حول الرحي ذاتها، لا بد من التحديد في النهج والأسلوب.

وليس وضع المنهج هو الحل النهائي، بل ينبغي أن نحث الطلبة على مزيد من القراءة والكتابة، وممارسة هواية كتابة الفنون الأدبية المختلفة، فالثقافة السطحية لم تعد مجدية في هذه الأيام، والعمق والفتح لا يمنحه الكتاب المدرسي، وإنما هو يعطي الطالب مفاتيح العلوم، وعلى الطالب أن يمارس بنفسه تنمية مهاراته اللغوية والعلمية بعد ذلك.

تبقى مشكلة المعلم، وكان الله في عون المعلمين، مهنة صعبة في زمن أغبر، ولكن يبقى لهذه المهنة مسحة من قداسة، فهي مهنة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وعلى المدرس أن يجد في ذلك عزاءه، وأن يحاول أن يبذل قصارى جهده في تطوير أدائه، مستفيداً من تراثنا الثري، ومن التقدم في العلوم النفسية والتربوية، ومن التطور في وسائل وتقنيات التعليم المعاصر، فلعل الله تعالى يخرج من بين هؤلاء الطلبة جيلاً ينهض بسئوليته، ويمحو عن هذه الأمة ما لحق بها من جهل وتخلف وخنوع وعمار.

ختاماً أسأل الله أن يتقبل مني ما قدمت، ويعفو عن الزلل، فمنه العصمة والتوفيق، قال تعالى: (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (البقرة: ٢٨٦). صدق الله العظيم.

المؤلف

أبو ظبي، ١/٦/٢٠٠٣ م.

الإنسان بين العقيدة والوطن

الوطن هو الذي يعطيك لغته، ويمنحك ثقافته، وينشئك على عاداته وتقاليده، ويغرس فيك قيمه ومبادئه.

يولد المولود على الفطرة، فيقضي سنواته الأولى في أحضان أسرته، ثم يأتي دور الوطن ليكمل رسالة الأبوين تعليماً وتثقيفاً وتهذيباً وتربية.

ودور الوطن لا يقل أهمية عن دور الأسرة، بل هو امتداد له، فمنذ أن ينخرط الطفل في المدرسة، إلى أن يتخرج من الجامعة، ثم يجد العمل المناسب له، يكون خلال ذلك كله متواصلاً مع أبناء وطنه تواصلاً تفاعلياً إيجابياً، ويستمر هذا التفاعل بعد ذلك مدى الحياة، فما يؤذي الوطن يؤذي، وما ينفع الوطن ينفعه.

والتواصل بين جيل الآباء والأبناء قائم عبر تراث الوطن وثقافته التي غالباً ما يكون لها صبغتها التي تميزها عن غيرها من الثقافات، ويكون التغيير والتنوير والانفتاح على الثقافات الأخرى قائماً من خلال التواصل الإعلامي والثقافي مع الآخرين ببطء تارة وبسرعة تارة أخرى.

والوطن ليس ملكاً لفرد أو مجموعة أو دين معين، بل هو ملك لكل فرد ينتمي إليه، وعليه لا ينبغي لأحد أن يكون وصياً على الآخر، وبخاصة في مجال الدين والعقيدة، بل لا بد من استيعاب الجميع تحت مظلة الوطن، ومن هنا لا بد أن نستهنج موقف المشركين من النبي محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام حين آذوهم وطردوهم من وطنهم مكة، قال تعالى: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُجْرِحُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ) (الأنفال: ٣٠)، ويبدو أن الأنبياء والرسل عليهم السلام فقد عانوا جميعاً من اضطهاد أعدائهم، الذين خيروهم بين ترك الرسالة أو ترك الوطن، وكأن الوطن حكر لكل كافر جبار، قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) (إبراهيم: ١٣).

وقد كان هذا التعنت نتيجة عقلية جاهلية ترفض الآخر، وهو نتيجة ترسبات اجتماعية جاهلية، فقد توارثوا تفكيراً اجتماعياً معيناً في الدين والحياة والأخلاق، وتوقف عنده الناس، ولم يعودوا يقبلون نقاشاً حوله، فقد صار مسلماً به في حياتهم، وهو أمر ترفضه العقلية المتحضرة التي ينبغي لها أن تقبل بالآخر، لأن هذا هو أساس السلم الاجتماعي، وهذا هو التصور الإسلامي للمجتمع، فحين دخل النبي عليه السلام المدينة عمل موادعة مع يهود، وبقي من بقي من أهلها على وثنيته، وهناك من كان منافقاً، وهناك السابقون الأولون، وقد عاش الجميع في وطن واحد شعارهم: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) (الكافرون: ٦). وكان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يمثل المرجعية لعليا لأهل المدينة.

والجمود الثقافي في الحياة العقلية للوطن يحتاج إلى من يحركه، لأنه يتنافى مع الإبداع والتغيير، والتهمرد على

قوانين الحياة الكلاسيكية التربوية هو من شأن المبادرين أصحاب الإبداع، وقد يكون ضرورة لتطوير الحياة، وهذا التمرد قد توجهه متغيرات جديدة كما حصل في بدء الدعوة الإسلامية، فقد كان الصحابة رجال ثورة فكرية في مجتمعاتهم، فبفضل الإسلام استطاعوا مقاومة الوثنية المتحجرة بما لها من قوة وسلطان، وبهذا كانوا طليعة للأمم جميعاً، فهم الذين آثروا الحقيقة على الخرافة، والتحول على الجمود، والمبادرة على الإحجام، وأما أهل الجاهلية فقد كان همهم الجمود على طريقة الآباء والأجداد ولو كان جموداً يحول المجتمع إلى مقبرة لانتفاء أي حركة تدل على حياته، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ) (البقرة: ١٧٠)، وكأن هذه سنة لدى أهل الجاهلية عبر كل العصور فمن قبل اتهم فرعون وملاه موسى وهارون عليهما بأنهما ساحران يريدان تغيير الحياة الاجتماعية وإحداث زلزال فيها بسحرهما: (قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى) (طه: ٦٣).

وإذا كان التحنط هو حالة نفسية وفكرية لدى الناس، ولا علاقة له بالدين الحق، بل إن الدين الحق قد قاومه، فإنه أيضاً لا ينبغي مصادرة حق الآخر في التعبير والحياة من قبل المسلم، فقد كان الإسلام رحيماً مع غيره من الأقليات التي بقيت على دينها، ولم يضغط عليهم ليغيروا دينهم، وإلا لما رأيت معابدهم منتشرة في عواصم الإسلام الكبرى عبر التاريخ، وهي دمشق وبغداد والقاهرة وإسطنبول فضلاً عن بقية المدن، فدين الله أعظم من أن يظلم أحداً أو يقهره، قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (يونس: ٩٩)، والنبي صلى الله عليه وسلم قد بعث رحمة عامة للخلائق جميعاً، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: ١٠٧).

وعلى أن لا نقبل ما تردده بعض أبواب الاستشراق وأتباعه من أن رجال الفكر اضطهدوا في تاريخنا، وأن منهم من قُتِل، مستشهدين على ذلك بما حصل للحلاج وأمثاله من الزنادقة، فالمسلمون أمة متحضرة فيها قضاء مستقل، والقانون ينفذ على المتعلم والجاهل على حد سواء، والعلماء بشر، وربما يخطئون، وقد يكون خطؤهم مهدداً لوحدة المجتمع أو عقيدته، أو مسبباً لشروخ عميقة في حياة الناس، فمحاكمتهم من هذا المنطلق ليس بقصد انتهاك حرية الفكر والتعبير، وإن كنا لا ننكر أن ثمة اضطهاد وقع حيناً كالذي حصل للبخاري وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة الذي مات مسجوناً، ولكن العبرة بعموم القاعدة وليس بالاستثناءات، وما حدث في تاريخنا لا يقارن مع ما حصل للمثقفين في أوروبا من أمثال غاليليو الإيطالي وفولتير الفرنسي وأمثالهما، فقد كانت هنالك معركة حقيقية بين الكنيسة والعلم لم يشهد تاريخنا مثيلاً لها، وذلك لأن الإسلام يحترم العلم ويوقر العلماء، قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (فاطر: من الآية ٢٨).

وعلى المجتمعات الغربية أن تستوصي بالجاليات الإسلامية فيها خيراً، ولا تجربها على تغيير دينها وعاداتها وتقاليدها لتنصهر في بوتقة المجتمع كما تزعم، كما أن على الجاليات أن تحترم الأوطان الجديدة التي تعيش فيها، لأن أساس الإبداع هو قبول الناس والتآلف معهم.

وخلاصة الكلام إن الوطن له حرمة والدين له حرمة، ولا ينبغي التفريط في حرمة أي منهما، مع إقرارنا بأن حرمة الدين أجل وأعظم، ونتمنى أن نرى اليوم الذي ترفل فيه بلاد المسلمين بنعمة الأمن والإيمان والصحة والعافية، يهاجر إليها الناس بدلاً من أن يهاجروا منها، ويلتمسوا فيها الرزق بدلاً من أن يلتمسوه في غيرها، ولا يكون ذلك إلا عندما تكون أوطان المسلمين محكاً لحقوق الإنسان، عزاً لمواطنيها، متقبلة للإبداع والتغيير، بعيدة عن الجمود والانغلاق.

الكتاب الخالد دستور حياة

القرآن كتاب الله الخالد، ومعجزة رسوله العظيم، فيه الحق والنور والهدى، وهو كتاب يدعو إلى الخير ويقود البشرية إلى الرشد، ويرفعها إلى آفاق العلا، ويمنحها فضلاً من الطهر والحب والجمال.

والقرآن أعظم هدية سماوية، وأتمن منحة إلهية، تهدي العقل البشري من كل حيرة، وتدله على درب السعادة والنجاة، وهو صراط الله المستقيم، وحبله المتين.

والقرآن كتاب جامع شامل لأمر الدنيا والآخرة، والفرد والجماعة، فأنت تقرأ فيه آيات التوحيد والعبادة والإيمان مثلما تقرأ فيه آيات الحرب والسلام وتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية على حد سواء، إنه دستور الحياة للمسلم في حياته كله من المهد إلى اللحد، وإليه تتحاكم الأمة المسلمة في شئونها كلها.

والفساد الذي اشتري في المجتمعات الإسلامية في القرون الأخيرة كان بسبب تغييب كتاب الله، أو بسبب سوء فهمه، ونعني بالتغييب إقصاء القرآن عن توجيه دفة الحياة، بحجة أن القرآن كتاب للتمائم والقبور والمواعظ، ولا يصلح لقيادة سفينة المجتمع، حتى صار مصير المسلمين بيد المستعمرين والغزاة الغرباء.

والمشكلات التي تعاني منها الأمة الإسلامية على جميع الأصعدة لها حلولها في هذا القرآن، فالديكتاتورية والاستبداد الذي يتكلم عنه الناس كثيراً في هذه الأيام مرفوض، وكان الشيخ عبد الرحمن الكواكبي رحمه الله قد نبه إلى خطر الاستبداد في كتابه (طبائع الاستبداد)، وبين أنه مفسد للأمة برمتها، والبديل هو الشورى، قال تعالى: (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (الشورى: ٣٨).

والفقر وتبعاته من التخلف الاقتصادي مرفوض، والمطلوب هو الإنفاق وتحقيق الأمن الاقتصادي لجميع أفراد الأمة، قال تعالى: (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: ٢٦٨).

وحقوق الإنسان مصنونة محفوظة، فلا عدوان على النفس، لأنه عدوان على الإنسانية جميعاً، قال تعالى: (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ) (المائدة: ٣٢)، ولا عدوان على العقل، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة: ٩٠)، ولا عدوان على المال، قال تعالى: (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة: ١٨٨). ولا عدوان على العرض، قال تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا) (الفرقان: ٦٨)، ولا عدوان على حرية الدين والعقيدة، قال تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (البقرة: من الآية ٢٥٦).

والحياة في القرآن عدل ورحمة وتواصل، وابتعاد عن كل ما يسبب تخلف الأمة من بغي وعدوان وفواحش، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل: ٩٠).

والقرآن كتاب معرفة، يرى في العلم مطلباً يلتمسه العبد من ربه: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) (طه: من الآية ١١٤)، وهو كتاب يدعو إلى العمل: (وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (التوبة: ١٠٥)، ويفرض الفصام بين القول والعمل: (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) (الصف: ٣).

والقرآن في النهاية يرسم سبيل الحياة البشرية، ويوضح الغرض من التنوع العرقي والتنوع السكاني على وجه الأرض، وهو التعارف والتعاون لما فيه مصلحة الناس جميعاً، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: ١٣).

فحقيق لمن كان القرآن كتابه أن ينهض ولا يتخلف، وأن يقود ركب الحياة لا أن يجرفه تيار الحياة. ولكن إذا كان القرآن كتاباً يقود إلى حياة أفضل، فما هو سر تخلف الأمة الإسلامية؟ إن القرآن نفسه وهذا من معجزاته قد وضع الأسباب التي تؤدي بالأمة وحذر منها، فمن ذلك: أولاً: تهميش تعاليمه في الحياة، ليبقى صورة نظرية لا رصيد لها في الواقع، حيث ينهمك الناس خلف أهوائهم وشهواتهم، مؤثرين دنياهم ولهوهم، قال تعالى: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ) (القيامة: ٢٠). (فَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) (البقرة: من الآية ٢٠٠).

ويدخل في التهميش تفسير القرآن تفسيرات باطلة لا تستند للمأثور أو اللغة، ويدخل فيه أيضاً عدم فهم مقاصده وأغراضه، مما يؤدي إلى تهميشه وسوء فهمه.

ثانياً: بعد أن تم تهميش القرآن أو استبعاده نجد من يطلب الهدى في غيره من الأهواء الضالة [وهذا يختلف طبعا عن الاستفادة من تجارب الأمم والشعوب فالحكمة ضالة المؤمن]، قال تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (الأنعام: ١٥٣). ولسنا بصدد سرد سيل عارم من أقوال دعاة المذاهب الهدامة الذين يريدون أن يلفتوا هذه الأمة عن كتابها، فقلوبهم ممسوخة بعشق كل فكر دخيل، وهم في سعي مستمر لجعل هذه الأمة تابعة للغرب أو الشرق، طالما بهرتهم صناعة الآلات هناك، ونسوا أن تلك الحضارة على عظم إنجازاتها العلمية والمادية فإن لها مثالب كثيرة، فهي قد حطمت الإيمان وقد مسخت الإنسان، وجعلته عبداً لأهوائه وملذاته ومصالحته الشخصية، فلم يعد هنالك قيم بشرية عليا تحكم الفرد والدولة على حد سواء، وإلا كيف يسمح الغرب لنفسه بتسيير الجيوش الجرارة لغزو الشعوب الفقيرة في القرون الخمسة الماضية لتبني على أشلائها مجدداً مزيفاً لسكانه؟ من يذكر الغرب بقوله عمر: (متى

استعبدتهم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً).

ثالثاً: كيد أعدائه، الذين عرفوا سر قوة القرآن، فالقرآن أكبر قوة معنوية تحرك الأمة المسلمة، ولذلك حاربوه حتى يوهنوا أمته، فتارة يتهمونه بأنه كتاب رجعي، وتارة بأنه كتاب ديني لا يصلح للحياة، وأخيراً وليس آخراً بأنه كتاب إرهابي يدعو للعنف، والقرآن براء من ذلك كله، فما هو إلا كتاب لنهضة الحياة وفق أسس عامة، وسنن ربانية ثابتة، قال تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) (الإسراء: ٩).

ما أحوجنا إلى تفعيل القرآن في حياتنا! وقراءته على أنه كتاب شامل للحياة، يكفل نهضتنا في الدنيا وسعادتنا في الآخرة، وتقديمه للبشر على أنه كتاب هداية ورحمة يحمل لهم الخير جميعاً، ويقيهم شر كل مرض، ويشفيهم من كل سقم نفسي وفكري اجتماعي فهو بلسم للبشرية جمعاء، وصدق الله الذي يقول: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الأعراف: ٩٦).

من أسرار أم الكتاب

زرت طبيبا ذات مرة، فوجدته يوزع كتيبا صغيرا من وريقات، فيه دعاء وتوسل ببعض الصحابة، وبالتحديد بأهل بدر رضي الله عنهم، وذكر في مقدمته قصصاً لا ندري مدى صحتها، تفيد بأن أصحابها توسلوا بهؤلاء الصحابة ففرج الله كرمهم، ونالوا مرادهم.

ولا ينكر فضل الصحابة مسلم بعد أن قال الله فيهم: (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبة: ١٠٠)، ولكن التوسل بهم بعد موتهم بدعة ما فعلها أحد من السلف على حد علمنا، ومن ثم فإن عمل الطبيب يحمى من حيث أنه أشار على مرضاه باللجوء إلى أبواب السماء لعل الله يشفيهم (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) (الشعراء: ٨٠) ويذم من حيث أنه لم يرشدهم للدعاء الأمثل وهو الدعاء المأثور، وعلى كل حال فهذا الطبيب أفضل حالاً ممن غسلت أدمغتهم فلا يؤمنون بالطب الروحاني، ولا يعتقدون إلا بالأسباب الأرضية، ويطلبون أموالا باهظة من مرضاهم، وينسون أن الطب مهنة إنسانية قبل أن يكون وسيلة كسب.

ولقد بحثت عن دعاء ناجح، ودواء ناجح، سهل الحفظ، عظيم الفائدة، فوجدته في سورة الفاتحة، هذه

السورة التي هي أعظم كنوز القرآن، وأحسن الأدوية، ولقد قال عنها الإمام ابن قيم الجوزية ما يلي:

(ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواص ومنافع مجربة، فما الظن بكلام رب العالمين، الذي فضله على كل كلام كفضل الله على خلقه، الذي هو الشفاء التام والعصمة النافعة والنور الهادي والرحمة العامة، الذي لو أنزل على جبل لتصدع من عظمته وجلاله، قال تعالى: (وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) (الاسراء: من الآية ٨٢)، ومن هنا لبيان الجنس لا للتبويض هذا أصح القولين كقوله تعالى: (وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (الفتح: من الآية ٢٩)، وكلهم من الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ فما الظن بفاتحة الكتاب التي لم ينزل في القرآن ولا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور مثلها، المتضمنة لجميع معاني كتب الله، المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب ومجامعها، وهي: الله والرب والرحمن والرحيم، وإثبات المعاد، وذكر التوحيدين: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وذكر الافتقار إلى الرب سبحانه في طلب الإعانة، وطلب الهداية، وتخصيصه سبحانه بذلك، وذكر أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعه وأفضله، وما العباد أحوج شيء إليه، وهو: الهداية إلى صراطه المستقيم المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته، بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، والاستقامة عليه إلى الممات، ويتضمن ذكر أصناف الخلائق وانقسامهم إلى منعم عليه بمعرفته الحق والعمل به، ومحبته وإيثاره، ومغضوب عليه: بعدوله عن الحق بعد معرفته له، وضال بعدم معرفته له، وهؤلاء أقسام الخليفة، مع تضمنها لإثبات القدر والشرع، والأسماء والصفات، والمعاد والنبوت، وتركيب النفوس وإصلاح

القلوب، وذكر عدل الله وإحسانه، والرد على جميع أهل البدع والباطل كما ذكرنا ذلك في كتابنا الكبير في شرحها، وحقيق بسورة هذا بعض شأنها: يستشفى بها من الأدواء، ويرقى بها اللديغ. وبالجملة: فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية لله، والثناء على الله، وتفويض الأمر كله إليه، والاستعانة به والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها وهي: الهداية التي تجلب النعم، وتدفع النقم، من أعظم الأدوية الشافية الكافية، وقد قيل: إن موضع الرقية منها: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة: ٥)، ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء، فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل والاتجاه والاستعانة والافتقار والطلب، والجمع بين أعلى الغايات وهي عبادة الرب وحده، وأشرف الوسائل وهي الاستعانة به على عبادته، ما ليس في غيرها.

ولقد مر بي وقت بمكة: سقمت فيه، وفقدت الطبيب والدواء، فكنت أتعالج بها، آخذ شربة من ماء زمزم، وأقرأها عليه مراراً، ثم أشربه. فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنتفع بها غاية الانتفاع^١.

وليس القصد هنا نبذ الدواء، وترك الأسباب، وإنما نود أن نلفت إلى أهمية الطب الروحاني إلى جانب الجسماني، فكثيراً ما يعجز الطب الحديث عن علاج بعض الأمراض، فلا يبقى غير الدعاء باباً للأمل، وماذا يفعل الدواء لو لم يأذن الله بالشفاء؟ وقد ورد عنه عليه السلام أنه قال: (عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن)^٢. ولأن الفاتحة أم الكتاب فما المانع من التداوي بها، إن كثيراً من المرضى يقفل الأطباء في وجوههم باب الأمل، فلماذا لا يلجأون إلى رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما لعله يشفيهم؟ ولماذا يجهدون أنفسهم في طلب العلاج الجسماني، ويتكاسلون عن طلب العلاج الروحاني؟ ولماذا لا يقترون الأخذ بالأسباب بالدعاء والتوكل وقراءة القرآن الكريم؟.

ليتنا نكثر من تلاوة سورة الفاتحة، ونتدبر كلام الله عز وجل، ونقرأه بخشوع وخضوع، ففيه الراحة والمتعة، وهو يجيب على أسئلتنا حول الوجود والغيب والمستقبل، ولو أسرجنا عقولنا بهدى القرآن لوجدنا الراحة والمتعة في كنفه، ووجدنا لذة لا تقاس بثمن، وهي لذة الأنس بكلام الرب عز وجل. إن كلمات الله تبدد التيه لمن يعيش في ظلالها، وتفتح له طريق الجنة والخلود، وتجعله يدرك فلسفة الحياة ودورة الأيام وحقيقة الأشياء، وتقوده إلى السعادة عند مليك مقتدر، فليجرب من أعياء المرض طب الأنبياء، وليبدأ بسورة الفاتحة، فهي فاتحة الخير للدنيا والآخرة، ومنهاج الحق لأهل الأرض والسماء، لعل بنفحاتها المباركة يجلو الحزن عن عيون كثير ممن دب فيهم البؤس وأعياهم البحث عن الدواء.

^١ - الطب النبوي، ص (٢١١-٢١٢).

^٢ - مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (١٢٨٨/٢)، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

هجرة العقول البشرية

الإنسان هو الثروة الحقيقية على سطح الأرض، وهو أغلى ما تملكه الأوطان والأديان، إذ يكفيه شرفاً أن سجدت له الملائكة بأمر مليكها الرحمن، قال تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) (البقرة: ٣٤).

والدول المتقدمة تدرك ما نقول، ولذلك كثيراً ما تسهل هجرة العقول المبدعة وأصحاب التخصصات العلمية النادرة إلى رحابها، وتقيم من تلك العقول الوافدة رافداً لها، ودعامة من دعائم التقدم والرقي الحضاري. ولكن ثمة سؤال هنا، وهو: لماذا تهجر الطاقات والعقول من البلدان النامية باتجاه الدول المتقدمة؟ وهل من مصلحة الدول النامية أن تحرم من خيرة أبنائها؟
والجواب يمكن تحديده بما يلي:

هنالك أسباب اقتصادية، فالجوع والفقر قد أهلك معظم السكان في البلدان النامية، والناس تبحث بطبعها عن الكفاية والوفر أو ما نسميه بالأمن الاقتصادي، قال عروة بن الورد:^١

ذريني للغنى أسعى فيني

رأيت الناس شرهم الفقير

وقال ابن الورد:^٢

حبك الأوطان عجز ظاهراً

فاغترب تلق عن الأهل بدل

وهنالك أسباب سياسية، وهي تعود في مجملها إلى الحروب والاحتلال والاستبداد وقمع الرأي الآخر. وهنالك أسباب نفسية، فقد يلجأ الإنسان للغربة لأسباب كامنة في داخله من عاطفة حب أو كره أو نحو ذلك، قال العباس بن الأحنف:^٣

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

وفي الغربة محاسن شتى، منها الشعور بالتجدد والنشاط، قال أبو تمام:^٤

وطول مقام المرء في الحي مخلت

^١ - البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، (١/٢٣٤)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

^٢ - جواهر الأدب، للهاشمي، ص (٦٨٦)، دار الكتب العلمية.

^٣ - التلخيص، للخطيب القزويني، بشرح البرقوقى، ص (٣٠) دار الفكر العربي..

^٤ - مختارات البارودي، (١/١٩).

لدياجتية فاعترب تتجدد

فإني رأيتُ الشمسَ زبدتُ محبةً

إلى الناس أن ليست عليهم بسرمدٍ

وفيهما مساوى شتى أيضاً، وفي المقدمة الحزن على فقد الإلف والأليف، قال الزركلي:^١

العينُ بعد فراقها الوطناً لا ساكناً ألفت ولا سَكنا

وفقدان الإلف يجعل الإنسان متخبطاً، مضطرباً، ويظهر هذا في سلوكه وتعامله مع الناس، فلا يميز عدوه من

صديقه، قال زهير:^٢

ومن يغترب يحسب عدواً صديقاً هَهُ

ومن لا يُكرّم نفسه لا يُكرم

فالغربة ليست إلا موتاً تدريجياً لحواس الإنسان وقلبه معاً، ولذلك تختلط أمام ناظره الأشياء.

وقد لا تكون المشكلة بالنسبة للفرد في قرار الهجرة أو عدمه، ولكن ماذا سيفعل الإنسان لو ها جر

وماذا سيفعل إذا بقي في وطنه؟ فالمهم من العملية هو الإنجاز والعطاء، ولكن المشكلة الأساسية في هذا القرار

هي بالنسبة للأمة التي تفقد أفلاد أكبادها، فعلى أي شيء من بعدهم سيقوم البنيان؟ وماذا فعلت لاستبقاء

أبنائها؟ وأي مستقبل لأمة يرحل عنها أهل المعرفة والإبداع؟

^١ - في ديوانه.

^٢ - شرح القصائد العشر، للتبريزي، بتحقيق د. قباوة، ص (١٩٦)، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

نحو إصلاح فكري

إصلاح المجتمع يبدأ من إصلاح الفرد، وإصلاح الفرد يبدأ من إصلاح فكره أولاً، وهكذا كان سلف هذه الأمة، فكرهم يرتفع عن الترهات، ومقاصدهم تسمو على النجوم، ولا أدل على نبل تفكيرهم، وسمو مقاصدهم، وثاقب نظرتهم من خبر ذكره الجاحظ، قال: (نظر عثمان بن عفان رحمه الله إلى غير مقبلة، فقال لأبي ذر: ما كنت تحب أن تحمل هذه؟ قال أبو ذر: رجالاً مثل عمر).¹

هذا خبر موجز، ولكن فيه مضموناً كبيراً، ودلالات بعيدة، فهو يهدينا إلى سر عظمة الأمة المسلمة، وهو ذلك الفكر القيم المستنير بمشكاة النبوة، والذي قاد رعاة الإبل والغنم إلى قيادة الشعوب والأمم.

فالفكر هو رصيد الأمم، وأساس تطورها، وعليه تقوم دعائم الحضارة، ومقومات المدنية، وعلى قدر ما يكون ذلك الفكر أصيلاً ونابعاً من تأمل وتجربة وعمق ومعرفة وواقع واتزان، بقدر ما تندفع هذه الأمة أو تلك نحو سلم الرقي والتطور، فإذا انسجم الفكر مع مكونات الإنسان الروحية والبدنية، والنفسية والواقعية، وتطابق مع الكون والحياة في التفسير والغاية، فإن هذا الفكر يكون مثالياً متسقاً من داخله، ويستطيع أن يحقق ما تطمح إليه عوالم الإنسان الداخلية من الخير والسعادة والحق والجمال، وهذا ما تحقق للأمة العربية بعد الإسلام، فقد استطاع هذا الدين أن ينقي العقل البشري من لوثات الانحراف العقدي والسلوكي، ثم قام بغرس قيم أصيلة عليا، هذه القيم قد تضحى بالعاجل ابتغاء الآجل، وتقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وتقدس التضحية بالذات من أجل سعادة الآخر في مجتمع الحق والخير والقيم النبيلة.

لقد كان الجيل الأول من هذه الأمة جيلاً قرآنياً فريداً، وموضع القدوة والقيادة في كل شيء ولا سيما في أفكاره وتصورات، صحيح أنهم كانوا يؤدون العبادات ونحن نؤديها اليوم، ولكن شتان بين الأدائين، وشتان بين دوافع كل أداء. فنحن نقرأ القرآن ونسمع الأحاديث والمواعظ التي تحثنا على عدم الركون إلى الدنيا، وتقديم المصلحة على المبدأ، ومع ذلك فإن الدنيا تتربع على عرش القلوب، وتكاد الآخرة أن تُنسى: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ، وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ) (القيامة: ٢٠-٢١).

لقد تسلط علينا وهم قاتل من حب الدنيا، وحرص شديد على جمعها، كل فرد منا يريد بناء حلمه الخاص، وتكوين عالم مستقل به، أشبه بمملكة صغيرة، يكون هو سيدها المطلق، ويحقق فيها ما تشتهي نفسه، ولا يبالي بالآخرين، ولو كانوا يجترقون من حوله.

ومع أن الأرزاق مكفولة (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) (الذريات: ٢٢)، وفي الأرض ما يكفي سكانها لو تضاعفوا عشرات المرات كما يذكر علماء البيئة والحياة، فإن الصراع القائم في هذا الكوكب الصغير مداره الأول والأخير على المادة والثروة، والتهالك والتنافس قائم على جمع الأموال من شتى السبل، ومن هنا

¹ - البيان والتبيين، للجاحظ، بتحقيق عبد السلام هارون، (١٧٧/٢). مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

تسقط الأمم، وذلك حينما يكون المال هو الغاية وليس الإنسان، ولا يتم ذلك إلا عندما يحدث فصام بين السلوك والفكر أو بين العقيدة والواقع، أو بين النظرية والتطبيق، ولا يشترط في سقوط الأمم وذهاب الحضارات أن يكون الفكر منحرفاً فقط، فلو كان الواقع منحرفاً، والفكر صحيحاً، فإن السقوط قادم ما لم يتم تحويل المبادئ إلى واقع مشاهد، ويكون هنالك ارتباط وثيق بينهما، لا ارتباط ترقيع ولا تلفيق على حد قول إبراهيم بن أدهم:^١

نرقعُ دنيانا بتمزيقِ ديننا

فلا ديننا يبقى ولا ما نرقعُ

رحم الله أبا زر، فلو كان مكانه أي واحد من رجال عصرنا، لما تردد أن يقول لعثمان عند جوابه: كنت أود أن تحمل بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة.. ولكن هيهات أن يقول ذلك أبو زر، وكيف يقوله وهو الصحابي الزاهد المتعفف الذي آثر الآخرة على الأولى، وازدرى حطام الدنيا طالباً رضوان الله تعالى. إنه يعيش في عالم أسمى، فهو يتمنى صلاح البشرية وإنقاذها، وصلاح البشرية لا يقدر عليه الضعفاء والمساكين، وإنما ينهض به الرجال الأمناء الأقوياء بالحق، الأشداء في مواجهة الباطل، الذين يعيشون عدلاً، ويقضون شهداء، أمثال عمر وبقية الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

لقد كانوا يترفعون عن التفكير بالنفس فقط، ويتحررون من جغرافية الجسد والوطن، ويتجاوزون شهوات هذه الدنيا التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ليفكروا في تصحيح مسار الحياة الإنسانية، وذلك لا يتم إلا بنشر الخير وقمع المفسدين، والقصاص من الطغاة وإقامة العدل، ورفع لواء التوحيد فوق الثريا. وماذا لو حملت قافلة برجال مثل عمر؟ هل كنت ستري جيوش المنكوبين والفقراء على وجه الأرض.. إنها أمنية عظيمة جدا، تمنّاها صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي كان يفكر في مشكلات الناس، فلا يرى حلا لها إلا بوجود رجال عظماء مثل عمر، حيث يعد عمر من أرفع النماذج الإنسانية الخالدة بين المسلمين وغيرهم.

ولكن أترأه يريد رجالاً مثل عمر في إسلامه؟ أم في هجرته؟ أم في صدقه وعدله؟ أم في زهده وحلمه؟ أم في خوفه من ربه؟ أم في جهاده واستشهادته؟ أم في صحبته وطاعته للرسول صلى الله عليه وسلم. إنه يريد رجالاً مثل عمر في كل شيء، يتجسد من خلالهم معنى الإسلام، وجمال العدل، وعظمة الإيمان، وسطوة الحق، وصدق الجهاد، وسمو الأخلاق ورفعة النفس، وشفافية المعاملة ونبل المؤمن. لقد كان هدف الصحابة رضي الله عنهم جميعاً هو أن لا ينتكس الناس، فيعودوا إلى جاهلية قديمة، أو يخرعوا جاهليات جديدة، أو يتقاعسوا عن نصرته دينهم، وأداء واجباتهم، أو يفرطوا في أماناتهم، وذلك ليستمر

^١ - فيض القدير، للمناوي، (٤/٢٧٩).

ركب الخير، ولا يقهره حزب الشيطان، فيزحف لسحق جند الهدى من جديد.

وماذا لو تمنى أبو ذر أن تحمل تلك القافلة متاعاً له أما كان ينفقه ليطعم به الجائع والمسكين والأسير؟ بيد أن أبا ذر وهو يدرك أهمية المال في غسل أحزان المعذبين في الأرض، يعلم أن هنالك ما هو أهم من المال، وهو الرجال الصالحون الذين يحافظون على ذلك المال، ويثرونه، وينفقونه ليكون بلسماً للمحرومين، فيمسح عن عيونهم الدموع من أجل إسعاد العالم.

صحيح أن المال يُسكن جروح المحرومين مؤقتاً، ولكن رجالاً مثل عمر بإمكانهم إسكات تلك الجروح بشكل دائم، فما أسرع ما يتلف المال أو يذهب بالنفقة، ويحتاج السائل إلى غيره من جديد، ولكن لو وجد العظماء أمثال عمر فإن عدلهم سيملاً الأرض، وستترف أعلام الجود في كل مكان، وستبقى سيرتهم خالدة تعلم الإنسانية وتبهر لها إشعاع الخير وطريق الهدى.

ولا قيمة في ميزان أبي ذر لمتاع الدنيا كله لو سيق إليه فيما لو سادها الظلم والفساد، حيث إن الظلم في النهاية سيمحق الظالم والمظلوم، ويبطال المعطي والمحروم، وينال الفاعل والمتفرج في الحياة، وهو مؤذن بذهاب العمران، وهلاك البشر، فلا قيمة للحياة مع الظلم حتى ولو اجتمعت للمرء كل أسباب السعادة والرفاه، طالما لم يحم عليها الشرفاء، ولم يحكمها الأمراء مثل عمر، وهذه هي المصلحة الحقيقية لأبي ذر وغيره، ولذلك رغبها أبو ذر بدلاً من المصالح الزائلة التي يتهاوت عليها أهل الدنيا من البشر، أولئك الذين يحطمون مصالح الآخرين من أجل مصالحهم، ويبنون أمجادهم من عرق الكادحين وجوع الفقراء والمساكين، فيتمنون أن تصب الدنيا كنوزها في جحورهم، فما بعد أولئك عن منهج أبي ذر؟ ذلك المنهج الذي يتلمس صلاح البشرية في قادة مخلصين عادلين يقيمون منهج الله في الأرض بكل صدق وإخلاص وعزيمة، وفي هذا صلاح لأبي ذر وغيره من سكان العالم.

واليوم بعد أربعة عشر قرناً من إشراقة الإسلام لو سألت أي عاقل عن أمنياته لحدثك كثيراً عن أشياء لا تتجاوز إطار الماديات بما فيها من إغراء ومتاع، ومن هنا تقهقرت الإنسانية وبان عجزها وفشلها، تهاوت في الفكر، وانحرف في السلوك، وتبعية وكسل عند بعض الأمم، وظلم وطغيان عند بعضها الآخر، ولا أتصور هذا الخراب الذي دك معاقل أمتنا على وجه الخصوص هو خراب صوري، بل هو خراب جذري جاء نتيجة لسبب مهم وهو خراب الإنسان من داخله، وبالتحديد من خراب الأفكار أو من سوء ترتيبها، فالواجب على المهتمين بإصلاح الإنسان وبناء الأوطان في عالمنا الإسلامي أن يهتموا بشكل قوي وفعال ببناء العقل المسلم، وصياغة الفكر عند شباب هذه الأمة، وذلك حسب القواعد الخلقية والقيمية لهذه الأمة، مبتعدين عن الخرافة والأساطير، فقد كان النبي محمد عليه السلام وهو القدوة والأسوة رائداً في ذلك، روى المغيرة بن شعبه، قال: انكسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات إبراهيم، فقال الناس: إنما انكسفت لموت إبراهيم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته،

فإذا رأيتموهما فادعوا وصلوا حتى تنجلي).^١
وينبغي الاستفادة من أهم أسلحة العصر وهي العلم والمعرفة، ومن خيرات الأمم والشعوب في شتى الميادين،
ليكون لدى الإنسان بصيرة قوية من داخله تحصن من الوقوع في مستنقع الضلال.

ونقول في الخاتمة:

أيتها الحياة الجميلة بما فيها من مفاجآت وتقلبات.
أيتها الدنيا الحلوة حيناً والمرّة أحياناً
أيتها البشرية التي تجنح للملائكة مرة، وللشياطين ألف مرة.
أيتها العيون التي تنتظر بسمة الفجر من وراء جلابيب الظلام.
أيتها القلوب التي ترتعش أحلامها في عالم الرعب والحرب.
لا تنتظروا من جحافل الظالمين وقفة عدل، ولا تتهافتوا على أهوائكم تهافت الجراد على الزرع، وعليكم إذا أردتم
صلاح شأنكم والعالم من حولكم أن تنشئوا جيلاً أقدامه في الأرض وأحلامه في السماء، يفكر بالقيم
والأخلاق قبل أن يفكر بالأهواء والشهوات، ويترفع عن سفاسف الأمور ومفاسد الأخلاق، فلا صلاح للحياة
إلا بصلاح أهلها، ولا يصلح أهلها إلا بصلاح عقولهم وأفكارهم، ولا يتم ذلك إلا عندما نتبنى فلسفة رشيدة
مثل فلسفة أبي ذر، وهي فلسفة تفكر بصلاح الإنسان والمجتمعات قبل أن تفكر في طعامها وشرابها، وهوها
ولذاتها.

^١ - أخرجه الشيخان وابن حبان، انظر: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، (٦٧/٧). مؤسسة الرسالة،
بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

حقوق الإنسان

تعتبر هذه الأمة العربية بميراثها الضخم في مجال حقوق الإنسان، فالشريعة الإسلامية قررت حقوقاً للفرد وللجماعة، وللمسلم وغير المسلم، وللعبد والحر، وللذكر والأنثى، وللمولود والشاب والعجوز على حد سواء. فمن ذلك:

- **حق الطفل في الرضاعة والنفقة**، قال تعالى: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (البقرة: ٢٣٣).

- **وحد المرأة في المهر**، قال تعالى: (وَأْتُوا النِّسَاءَ صِدْقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا) (النساء: ٤).

- **وحد العبيد والمستضعفين**، في تكوين الأسرة، قال تعالى: (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (النور: ٣٢).

- **وحد الوالدين والجار والصاحب والقريب** بالمعاملة الحسنة، قال تعالى: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) (النساء: ٣٦).

- **وحد الأقليات من غير المسلمين** ممن لا يرفع سيفاً في وجه الدعوة بالأمن والتعايش السلمي، قال تعالى: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (المتحنة: ٨).

- **وحد حرية العقيدة**، قال تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (البقرة: من الآية ٢٥٦).

والعرب أمة تحب مكارم الأخلاق، قال عمرو بن الأهتم:^١

ونكرم جارنا ما دام فينا وتتبعُ هُ الكرامة حيث مالا

وكانوا في جاهليتهم يقرون الضيف، ويجيرون المستجير، ويطعمون الطعام، ويحترمون حرية العقيدة، فمنهم من عبد الأصنام، ومنهم من عبد النجوم والشياطين والطواغيت، ومنهم من تنصر أو تهود، ومنهم من كان على الحنيفية الإبراهيمية، وتعايش الجميع في جزيرتهم من غير سلطة مركزية، فلما جاء الإسلام عزز القيم الأخلاقية، وشرع من الأحكام ما يحمي حقوق الإنسان، وألغى من قوانين الجاهلية وأعرافها مما فيه مساس

^١ - معاهد النصيص للعباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (٢٥/٣)، عالم الكتب.

بحقوق الإنسان من وأد للبنات، أو احتقار للمرأة، أو أذى للعبيد، أو عدوان على حرية الديان، قال تعالى: (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) (غافر: ٢٨).

بيد أن هذه الميراث الضخم في حقوق الإنسان بدأت هذه الأمة تفقده شيئاً فشيئاً عبر الزمان، فابتدأ ذلك في عهد الصحابة، فقد قتل ثلاثة من الخلفاء الراشدين المهديين المنتخبين من الرعية، ثم وقع السيف بعد ذلك بآل بيت النبي عليه السلام، فقتل الحسين وعدد من آله وذريته، ولم تنزل الفتن تنمو وتتفاقم إلى يومنا هذا، حتى صارت الأمة الإسلامية مثلاً للظلم والاستبداد، وصارت تقارير الإدانة تنصب عليها من جمعيات حقوق الإنسان العالمية ليل نهار، ووجدت بعض الدول ذات النفوذ مدخلاً لها للسيطرة على أجزاء من العالم الإسلامي بدعوى نصرته المظلومين وتحرير الإنسان، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ألسنا نحن أولى بتعليم الآخرين حقوق الإنسان؟ ألم يقل عمر بن الخطاب: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)؟ فلماذا لا نمارس ما تعلمناه من ديننا وتراثنا وحضارتنا بهذا الصدد، بدلاً من أن يأتي الآخرون ليهبونا هذه الحقوق وكأننا أمة متخلفة جاهلة لم تعلم الناس يوماً أصول الحضارة، ومناهج البحث في العلوم وقواعد المدنية والنظام.

ومن نافلة القول أن نذكر بأن انتهاك حقوق الإنسان ليس قاصراً على هذه الأمة، بل جميع الأمم

شريكة فيه على درجات متفاوتة، قال الشاعر:

قتل امرئ في غابة جرمته لا تغتفر

وقتل شعبٍ آمنٍ مسألة فيها نظرٌ

فالناس فوق الأرض جميعاً ـــــــــــــــــ مدعوون إلى مزيد من الفهم والرعاية لحقوق الإنسان، فالذي يسكت عن انتهاك حقوق الإنسان، أو يقوم بانتهاكها خارج حدود بلاده، كلهم سواء في انتهاك حقوق الإنسان، وعليه فليس ثمة مكان إلا وتنتهك فيه حرمة الإنسان بطريقة أو بأخرى وعلى درجات متفاوتة.

مرحباً بشهر الصيام

مرحباً أيها الشهر العظيم، فأنت تزورنا في كل عام مرة، فتجلب معك السعادة والبركة والنشاط. مرحباً بـرمضان، فهو شهر الطاعة والزهد والتقشف والقيام لله عز وجل، وهذا الشهر العظيم شرع لتربية الأمة المسلمة على الصبر وتحمل المشاق في سبيل الله، فالأمة المسلمة أمة عمل وإنتاج وجهاد، ولا يتم ذلك من دون الصبر، فالصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وكفى بالصيام باعثاً على الصبر، فيه يجبس الإنسان نفسه طواعية عن لذائذ الحياة ابتغاء وجه الله عز وجل، وهذا الجبس يولد في نفسه القدرة على التحمل في أعتى الظروف، ويربي فيه الإرادة الحرة التي لا تخضع إلا لله تعالى.

وشهر الصيام شهر عمل ونشاط، وليس شهر كسل وخمول، فالصائم في طاعة ولو رقد، وامتناعه عن الطعام لمدة نهار كامل يعطيه القوة والمناعة، فالمعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء كما تقول العرب، وهناك بعض الأمراض لا علاج لها إلا بالصوم.

وفي رمضان تنزل رحمت السماء، فيسارع أهل الطاعات للدرجات، ويسارع أهل المعاصي للتوبة، ويتنافس الناس في عمل الخير والمبرات، وتفتح لهم أبواب السماء، وتهب عليهم ريح الجنة: (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) (المطففين: من الآية ٢٦).

وشهر الصوم شهر عمل وجهاد، فيه يجب أن تستعد الأمة للعمل، وتضاعف طاقتها الإنتاجية، تماماً كما يستعد الجنود وقت النفير، وينبغي استغلال كل دقيقة في موسم الخير هذا لأنها فرصة لا تعوض، يبادر إليها من عرف قيمة الوقت في هذا الشهر العظيم.

والنجاح في هذا الشهر عندما نخرج منه وقد تحررنا من العبودية للشهوات الجامحة، والرغبات الفاسدة، والأهواء القاتلة، وذلك لا يتم إلا عندما نقهر الحقد بالصفح، والعداوة بالتسامح، والعجلة بالصبر، والذنوب بالتوبة.

فلنسائل أنفسنا عقب كل رمضان: هل زدنا الإنتاج فيه، أم ضيعنا شهر الصوم بالنوم والكسل؟

هل مرت ليالي رمضان بالقيام والتهجد، أم بالسهر على أحدث الأفلام؟

هل ولى رمضان ونحن نجبه ويحبنا، أم ولى ونحن أشد شوقاً إلى الطعام والمлдات، واللهو والانفلات؟ كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي:^١

رمضانٌ ولى هايتها يا ساقى

مشتاقاً تسعى إلى مشتاقٍ

^١ - الشوقيات، شرح د. يحيى شامي، (٢/٣٨٨)، دار الفكر العربي، بيروت.

هل أعددنا مشروعاً حضارياً لنهضة الأمة؟ هل فكرنا بالرعاية لأسرة مشردة، أو يتيم مكتئب، أو فقير بائس؟ أم فكرنا بالسفر إلى بلاد اللهو والملذات، لنلهو ونرتع في العيد السعيد بلا حسيب أو رقيب؟ هل حققنا مقاصد الصيام وفوائده؟

لقد أجاب الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله على هذا السؤال، فقال تحت عنوان: (تفريط المسلمين في مقاصد الصوم وجناية العادات على العبادات) ما يلي: (.. ولكن المسلمين قد جنوا في كثير من الأحيان على أنفسهم، وعلى مقاصد الصوم وفوائده بالعادات التي يتدعوونها، وبجهلهم وإسرافهم في الإفطار والطعام، والإسراف الذي يفقد الصوم الشيء الكثير من فائدته وقوته الإصلاحية والتربوية، وقد لا حظ ذلك بدقة حجة الإسلام الغزالي وتحدث عنها ببلاغة، يقول رحمه الله: الأدب الخامس: أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ جوفه، فما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن ملئ من حلال، وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاتته ضحوة نهاره، وربما يزيد عليه في ألوان الطعام، حتى استمرت العادات بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان، فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر، ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء، وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى، وإذا دفعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها، وقويت رغبتها، ثم أطعمت من اللذات وأشبعت، زادت لذتها، وتضاعفت قوتها، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها، فروح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العودة إلى الشرور، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل، وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم، فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلاً، فلم ينتفع بصومه، بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار، حتى يحس بالجوع والعطش، ويستشعر ضعف القوى، فيصفو عند ذلك قلبه، وليستدسم كل ليلة قادراً من الضعف حتى يخف عليه تمجده وأوراده، فعسى الشيطان أن لا يحوم على قلبه، فينظر إلى ملكوت السماء)^١

إنه لا بد من أن نعيد لهذه الشعيرة المباركة محتواها الروحي بالتقليل من الأطعمة والملذات، وبالتسامي فوق الغضب والانفعالات، فما شرعت فريضة الصيام إلا لتذهب عنا رجس الشيطان، وتطهر أرواحنا من الآثام، وتجعلنا دائماً في كنف الرحمن، وصدق الله العظيم إذ يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة: ١٨٣).

^١ - الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة مقارنة مع الديانات الأخرى، ص (٢٢١-٢٢٢)، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤م، دار القلم، الكويت.

التأكيد على الهوية في سلوك الشباب

الشباب هم عمدة الأوطان، ورجال الغد، والأمل الباسم على شفاه الآباء والأمهات، نشقى لأجلهم، ونفرح لفرحهم، ونحزن لحزنهم.

والشباب هم وسيلة التواصل الثقافي والاجتماعي بين ثقافة الآباء والأجداد، والناشئين من الذرية والأحفاد، قال رؤبة يمدح عدي بن حاتم الطائي^١:

بأبه اقتدى عديُّ في الكرم

ومن يشابه أبه فما ظلم

ولكن بسبب هذا الامتزاج الحضاري في العالم اليوم، وسيطرة القوي على مقاليد الأمور، دب إلينا داء الأمم الأخرى، من الفساد النفسي والخلقي والسلوكي.

بعض شبابنا اليوم لا هم له إلا متابعة الموضة الحديثة.

وبعضهم يتبع الغرب اتباعاً أعمى في كل شيء، فمرة كانت موضة الخنافس دارجة حتى لم تعد تميز الشباب من الفتاة، وفي ذلك يقول أحد الشعراء من قصيدة طويلة:

لقد تخنفسَ حتى قلتُ في عجبٍ

حيرتَ عقلي أنثى أنتَ أم ذكرُ

واليوم جاءت موضة الحلاقة على الموسى، حتى صرت تعجب من كثرة الرؤوس الحليقة، وهذه الحلاقة كانت خاصة بمن يخرج من السجن كنوع من العقوبة، أو بمن يؤدي مناسك الحج والعمرة كنوع من القربى إلى الله. وبعضهم يتشبه بالجنس الآخر في سلوكه ومظهره.

وبعضهم يتشبه بأبطال الفن والرياضة من أمثال المطرب جاكسون (هذا المطرب المتغطرس الذي صرح بأنه لو عرف أن العرب سيعجبون بغنائه لما غنى أصلاً، إنه مايكل جاكسون أصبح ينام في خيمة من الأوكسجين ليطيل عمر شبابه)^٢

وبعضهم يتسكعون على الأرصفة والشوارع، ويحفظون من الأغاني أكثر مما يحفظون من القرآن، ويعرفون من الأفلام أكثر مما يعرفون من السيرة.

إذا سألتهم عن الحسن البصري وسفيان الثوري وأبي حنيفة النعمان سكتوا، وكان سكوتهم عيا، وإذا سألتهم عن أبطال الرياضة والفن والغناء نطقوا، وكان نطقهم بلاغة!

إنه شباب لاه عابث، فقد القدوة، وفقد الهدف في الحياة، فهو يهدر الوقت ويضيع المال، وييلي أحلى

^١ - شرح ابن عقيل، بتحقيق محمد نحيي الدين عبد الحميد، (٥٠/١).

^٢ - مجلة سيدتي، العدد (٣٥٦)، ص (٢١).

أيامه بلا طائل من وراء ذلك كله، والله در أبي العتاهية حين قال:¹

إن الشباب والفراع والجددة

مفسدة للمرء أي مفسدة

إن ظاهرة تفلت بعض الشباب من الالتزام والأخلاق ظاهرة اجتماعية مرضية خطيرة، فالشباب هم عماد الأمة، وأملها الباسم، فإذا نخرتهم الشهوات، واستهلكتهم الأهواء والمخدرات، تحولوا إلى أداة مقلقة للأمن الاجتماعي، ومسببة للفساد في الأرض.

وهذه الانحرافات تأتينا اليوم من الغرب، فتجد من يروج لها في بلاد العرب والمسلمين، فكما انتقل لنا الغزو الفكري واللوثات الفنية ينتقل لنا أيضاً عدوى المجون والانحلال، وصار للانحلال أعلامه، وصحفه وكتابه وأقلامه، بل هو يغزو البيوت من خلال الفضائيات، حيث إن بعضها يبرع في تصوير الفساد وتزويقه، فيضل أبناء هذه الأمة باسم التقدم والفن والحب والضحك والفرفشة.

لقد نشأ جيل لا ينتمي لقضايا أمته، إذا حدثته عن أي مأساة من مآسي الأمة أعرض عنك، أو نظر إليك وكأنك رجل قادم من كوكب آخر تريد عمل المستحيل، سرعان ما يقول لك: إن هذا الواقع لن يتغير، فما عليك إلا أن تسايره، وأولى من الحديث عن الأوهام والمشكلات أن تمارس الواقع كما هو، لا تنظر للعالم بنظرة سوداء، دع القلق وابدأ الحياة، حاول أن تفرح.. أن تلهو، دع الخلق للخالق، إلى غير ذلك من العبارات التي تسمعها من هؤلاء المتحررين من هموم أمتهم وقضاياها.

ترى كيف يرضى إنسان لنفسه أن يكون تابعا لغيره من أهل الفسق والضلال؟ وما قيمة الإنسان إذا لم تكن له شخصية مستقلة كريمة لا تذوب وراء الآخرين؟

إن الانحراف لم يكن ليحصل لو اهتم المربون بالتأكيد على الهوية واستقلال الذات والتحذير من التبعية، وإشعار الشاب العربي بصفات الرجولة والكرامة، وبعث الاعتزاز بأبطال أمته، والكشف عن زيف أولئك الفاسدين الذين يتبعهم بعض الشباب اتباعاً أعمى.

إنه لما يدعو للعجب أن شباباً كان أجدادهم أبطالاً ً فاتحين يتركون سيرة أولئك الأبطال، ويتبعون بعض المنحرفين في الغرب ليتخذوا منهم قدوة.

لنبعث في شبابنا قيم العروبة والإسلام، لنجعلهم يقرؤون سير عظمائنا في التاريخ، لنذكرهم دوماً بأنهم من خير أمة أخرجت للناس، ولنذكرهم أيضاً بقول الشريف الرضي:²

إذا عربي لم يكن مثل سيفه

مضاً على الأعداء أنكره الجد

¹ - معاهد النصيص للعباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (٢/٢٨٣)، عالم الكتب.

² - مختارات البارودي، (٢/٢٣٥).

الخشوع روح الصلاة

الخشوع في الصلاة أهم ما فيها، قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) (المؤمنون: ١-٢).

ومعنى (خشع خشوعاً: خضع، وذل، وخاف.)^١، فعندما يخشع المؤمن في صلاته فإنه يشعر بالخضوع والذل والطمأنينة والفقر إلى الله تعالى، فتراه يقشعر جلده من خشية الله، ويصرف ذهنه عن كل ما سواه، فإنه قائم بين يدي ملك الملوك وجبار السماوات والأرض، الذي بيده ملكوت كل شيء، وإليه مصير الخلائق كلها، وقد كان السلف الصالح قدوة لنا في هذا المجال، فقد كانت صلاتهم صلاة مودع لهذه الدنيا، مستقبل للآخرة، وكانوا حين يقرؤون آيات الرحمة يستشعرون نعيم الجنة فيفرحون به، وعندما يقرؤون آيات العذاب يستشعرون عذاب النار فيكون من خشية الله، فهذا عبد الله بن الزبير، كان (إذا قام في الصلاة كأنه عمود من الخشوع، وكان يسجد فتتزل العصافير على ظهره لا تحسبه إلا جذع حائط، وصلى يوماً في الحجر . الحطيم . فجاء حجر قدماه فذهب ببعض ثوبه، فما انفتل . وقال ميمون بن مهران: ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتاً في صلاة قط، ولقد انهدمت ناحية من المسجد، ففزع أهل السوق لهدمها، وإنه لفي المسجد يصلي، فما التفت . وكان علي بن الحسين رضي الله عنهما إذا توضأ اصفر لونه، فقيل له: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فقال: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟!)^٢

تلك بعض الصور من خشوع السلف، فلا حركات ولا تمايل، ولا التفات بلا مبرر، ولا عبث بغطاء الرأس أو حكة للجسم، ولا تملل وراء الإمام، ولا يضع أحدهم ثقله على إحدى رجله دون الأخرى، ثم يغير وضعه كل حين، ولا ضحك ولا لعب، ولا يرنو أحدهم إلى السماء أو المارة، ولا تتعلق قلوبهم بالأسواق والبيع والشراء وهم في الصلاة، وإنما يقف أحدهم وكأنه جندي في واجبه، يتغني رضاء الحي القيوم.

يظن بعض المصلين أن المخالفات بالصلاة مسموح بها، وأن المهم هو أنه يصلي وليس مثل غيره ممن تقاعس عن أداء هذه الفريضة، وكأنهم لم يدروا بأن الغريق لا يقاس عليه في السباحة، والمقصر لا يصلح للقياس عليه هنا، بمعنى أن المرء لا ينبغي له أن يقرن نفسه بمن هو أسوأ حالاً منه فيتوكل، وإنما يقرن نفسه بالمهرة البررة، فينشط للسعي والعمل، فأولى بهم أن يقرنوا صلاتهم بصلاة السلف الصالح، ليعرفوا الفرق الشاسع بين الصلاتين، فيتداركوا التقصير قبل فوات الأوان.

ولو استوعبنا ما في الصلاة من حكم وأسرار، واستسلمنا فيها لله الواحد القهار، واقشعرت جلودنا، وذرفنا الدمع مدارراً، وحافظنا على الصلاة آناء الليل وأطراف النهار، لكسانا الله حلال طاعته، وجمالنا بنور التقوى، وحل علينا

^١ - المعجم الوسيط، مادة (خشع) ..

^٢ - مختصر منهاج القاصدين، للمقدسي، ص (٢١) ..

رضوانه، وليس بعد رضوانه من مرتبة تشرئب إليها أعناق العابدين.

قاعدة تربوية في العدل

الأنبياء هم قادة هذا العالم نحو الحق والخير والجمال، فهم قادة الفكر والأخلاق والعواطف بلا ريب، وهذه حقائق مسلمة، لها من الأدلة العقلية، والشواهد اليقينية، والبراهين العلمية، والأخبار التاريخية، ما يثبت صدقها المطلق.

وبين أيدينا رصيد ضخم من ميراث الأنبياء وآثارهم، وهذا الرصيد يشهد لهم جميعاً بأنهم عليهم السلام هم المخلصون لهذه البشرية، والمنقذون لها من كل الانحرافات والأوهام، والفتن والشور والآثام.

وإذا كان الأنبياء هم رجال الإصلاح في هذا العالم، وهم حملة مبادئ الحق فيه، فإن الشوكة والقوة عندما تكون لهم، فإن الخير يعم أرجاء الأرض، نتيجة ترجمة المبادئ التي يحملونها من صورتها النظرية إلى واقع ملموس معاين، وعند ذلك يصبح الوجود دوحة ظليلة من الرحمات والخيرات والحب والعطاء.

وأما إذا كانت الشوكة بيد أعدائهم، فإنهم يتعرضون مع أتباعهم لسلسلة من الابتلاءات الكثيرة الطويلة، على أيدي أعدائهم من جلادي الإنسانية، ثم ينتهي الصراع الطويل بإحدى الحسينين: النصر أو الشهادة.

والقرآن الكريم قص لنا قصصاً عن أنبياء انتصروا وآخرين استشهدوا، وعن أنبياء صاروا ملوكاً فأقاموا دين الله في الأرض، وآخرين تعرضوا لمحن كثيرة، ومن هؤلاء يوسف عليه السلام.

فيوسف بعد سلسلة من الابتلاءات، خرج منها نقي الثوب كالتبر المسبوك، وصل إلى عرش مصر،

فماذا كانت سياسته آنذاك؟

إنها تلخص بجز يسوقه ابن قتيبة وهو: (قيل ليوسف عليه السلام: مالك تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ قال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع).¹

حين يصل نبي إلى موقع المسؤولية فمعنى هذا أن المعذبين في الأرض من فقراء ومساكين ومظلومين قد حفتهم الرحمة وغمرتهم السعادة، فالنبي هو أعظم من يتحمل المسؤولية، وهو أحرص على الإنسان من أمه وأبيه، وهو الذي يحمل هموم المعذبين والضعفاء ويعمل على تصفيتهما واحداً تلو الآخر، بكل ما آتاه الله من عون ووسائل.

فيوسف عليه السلام الذي عاش مع الطبقة العليا في مصر في بيت العزيز، وعاش مع الطبقات المسحوقة في السجن، وتنقل بين الطبقتين، وعرف هموم الناس ومشكلاتهم، ومعاناتهم في البدو والحضر، وعرف مشكلات الأسرة والمجتمع، ثم وصل برعاية الله وقدرته إلى عرش مصر، كانت لديه من خلال ذلك كله خبرة واسعة في الحياة تؤهله لكي يحكم الناس بالعدل، وينصف المظلومين، ويرعى المحتاجين والسائلين. وهنا يختط عليه السلام لنفسه طريقاً قويمًا ومنهجاً واقعياً واضحاً في إنصاف الناس، عماد هذا المنهج الإحساس بالآخرين

¹ - عيون الأخبار، (٦/٣٧٤)، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر (مصورة عن طبعة دار الكتب).

من خلال تعريض النفس لمثل ما يتعرضون له، فحرمان النفس من لذة الشبع مع القدرة عليه كان من أجل إبقاء الشعور بمعاناة الآخرين قائماً في نفسه، ليستطيع من خلال الإحساس بهذا الشعور أن يقاوم آفة الجوع في المجتمع، ويساعد الجائعين على التغلب على هذه المشكلة، حتى يتم لهم عيش الوفر والرخاء.

ولكن ماذا لو شبع يوسف؟ أكان ينسى الجائعين؟ كلا. ولكن مجرد خوف النسيان منعه من الشبع، وهو من هو سمواً في نفسه وخلقه ودينه، وما أراه فعل ذلك إلا ليعلم المسئولين والحكام كيف يعيشوا آلام شعوبهم.

تأمل عظمة الأنبياء، وهم في أعلى درجات القوة والسيطرة والتمكين في الأرض لا ينسون الضعفاء، ولا تغرهم المناصب، ولا يزيدهم النصر والتمكين إلا تواضعاً ورأفة بالعباد والبلاد، وهم عليهم السلام يختطون لأنفسهم المناهج العملية التي تساعدهم على إقامة دين الله في الأرض، ساعين إلى مسح دموع الحزن والشقاء من عيون البشر بالعمل الصادق لا بالشعارات وحدها.

وفي كلمة يوسف فائدتان:

الفائدة الأولى: للقائمين على شئون العباد من الحكام وأعوانهم، حيث يجب على هؤلاء إقامة العدل بين الناس، وأن لا يتخذوا ما هم فيه من سلطة سبيلاً إلى الم لذات واللهو الرخيص، بل إن عليهم أن يستغلوا موقعهم لدفع عجلة الحياة نحو الخير والسعادة لشعوبهم وبخاصة الفئات المسحوقة جوعاً وفقراً، وأن يرغبوا بما عند الله ويفضلوه على ما في خزائنتهم، وأن يبحثوا عن السبل العملية التي تشعرهم بمآسي الآخرين، ثم يبحثوا بعد ذلك عن حل لها، فإذا فعل الحاكم ذلك، سلم ملكه، وريح آخرته، وأحبه الله، وأحبه شعبه، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً) (النساء: ٥٨)

والفائدة لثانية: للسالكين طريق الله عز وجل، فما أحوج هؤلاء إلى البعد عن التخمّة والشبع، والانغماس في الم لذات الدنيوية الهابطة، فالطعام الكثير مفسد للبدن، مضر بالروح، جالب للنوم، مهيج للغرائز البهيمية، وقد أمرنا بعدم الإسراف بالأطعمة، وبالاعتدال في كل شيء، قال تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (الأعراف: ٣١).

والشبع ربما ينسيك الجائعين، فتمسك عن الإنفاق في سبيل الله عز وجل، علماً بأن الإنفاق من أفضل القربات، فلا بد من التجرد لله، ومحاسبة النفس حتى تكون خادمة للحق، وهنا يحقق التشريع الإسلامي مقاصده، لا أن نجعل الدين مطية لأغراض دنيوية رخيصة ومطالب خسيصة عاجلة.

تبقى كلمة أخيرة في هذا الصدد، وهي أن الشيوعية البائدة ظنت بأن حل مشكلة الجوع بإثارة الحقد

الطبقي، والفتن العمياء، والثورات العاشمة، وإشعال الحرب بين الفقراء والأغنياء، والعامل ورب العمل، فسلبت الأغنياء أموالهم وجعلت الملكية جماعية، مما أفشل المصانع والمؤسسات الإنتاجية، وأدى إلى تقهقر الاقتصاد وخراب المجتمعات الشيوعية، إن حل مشكلة الفقراء والطبقات الكادحة من العمال والفلاحين لا تكون من خلال الشيوعية التي تمردت على الفطرة، وأنكرت وجود الخالق عز وجل، وحولت الناس إلى عبيد عند الحزب الشيوعي، وإنما بإيجاد الفلسفة التربوية الصادقة المنبثقة من هدى الأنبياء عليهم السلام، وإيجاد الحاكم المؤمن والمجتمع المتماسك الذي يلتزم هذا الفلسفة، وأما الشعارات البراقة بأن الشيوعية كانت مع الفقراء والمساكين فهذا كذب تدحضه التجربة الشيوعية في العديد من بلدان العالم في القرن العشرين، حيث أفقرت الشعوب، واقترفت بحقها أبشع جرائم الإبادة بحجة محاربة الإقطاع والرأسمالية.

وأما الماسونية صاحبة شعارات الحب والإخاء والمساواة فليس لنا سوى أن نضحك من شعاراتها، بعد ما رأينا الكوارث تنزل بهذا العالم، والأصابع الخفية هي من وراء الأحداث، ومع ذلك فهي ترفع شعارات براقة في حين أنها تبني فوق أنهار الدم وكتل الجماجم مملكة صهيون!!.

مصنع الإلحاد

ابتلي هذا العصر بعزل كثيرة، ولكن ألعتها وأفتكها هو الإلحاد بالله عز وجل، فكيف يكفر الإنسان بخالقه ورازقه ومربيه؟ كيف يكفر بمن حباه النعم، ورازقه العقل، وأحياه بالمعرفة، وأقام له الدلائل، وأرسل له الرسل، وزوده بالمعرفة والشرائع؟

كيف يكفر بمن خلق فأبدع؟ وخلق فسوى، وتلطف وأكرم، وعلم بالقلم، وأغدق على الإنسان جميع النعم؟ هل يليق بالإنسان الذي رزقه الله السمع والبصر والفؤاد أن يجحد ربه؟ وهل يليق بالإنسانية بعد آلاف السنين أن تجحد ربها؟ وما قيمة الحياة والإنسان إذا جحد الإنسان ربه؟ هل تعيش للإنتاج فقط، وما قيمة الإنتاج إذا سحقت القيم الروحية؟ هل نعيش كالسائمة نبحت عن المطالب الحيوانية فقط؟ وهل يليق بمن رزق نور العقل، وقرأ كلام الله تعالى، أن يعيش في جحيم الكفر وعالم الشيطان؟ بالطبع سيكون الجواب بالنفي قطعاً، فالعقل المبصر، والقلب الحر، والنفس الأبية، تأبى الخضوع إلا لله تعالى، فهو وحده الذي يستحق أن نطأطئ له الهامات، وترتجف من خشيته القلوب.

والقرن الماضي كان يمور بالإلحاد، بعد أن ملك الملاحدة مختلف أنواع الأسلحة، وجميع وسائل القهر والإغراء في آن واحد، فليس لديهم مانع من الاعتداء على الأنفس والأموال والأعراض لمن عاندهم، أو إباحة مختلف أنواع الشهوات لمن سار معهم، فما أشبه دنياهم بما فيها من الرعب والخوف من جهة والسحر والملاذات من جهة أخرى بجنة المسيح الدجال وناره، ففيها الفتنة والإغراء لمن غلبت شهوته عقله، ودنياه آخرته، وأهواؤه نزعة الخير فيه، وفيها العذاب والنكال لمن استنكف عن عبادة ذلك الساحر المزيف، أو اتباعه مثل جمهور المغفلين والبلهاء من قطيعه الذي سيبعبه.

لقد ملك الملاحدة دولاً كبيراً تنتج مختلف صنوف الأسلحة من الذرة إلى الصواريخ العابرة للقارات، وظنوا أنهم بهذه القوى الطاغية سيقهرون العالم، ويغلبون الدنيا، ويفرضون كفرهم وإلحادهم، وغاب عن عقولهم القاصرة بأن الحقيقة لا يقهرها شيء، وأن الحق لا يقطعه سيف، وأن الإيمان الذي يسكن أعماق الإنسان لا تقتلعه كل أسلحة الإلحاد وأدواته.

يريد الملحدون أدلة تثبت وجود الخالق، والكون بكل ما فيه شاهد على الموجد القديم، لقد كتب العلماء من كل الأمم آلاف الكتب لإثبات هذه القضية، لأن وجود الله متفق عليه بين سائر الملل والأديان، وإن اختلفوا في صفاته وأفعاله، ويكفي للإنسان العاقل أن يتدبر ما حوله ليؤمن بالله العظيم، يقول أبو العتاهية:¹

فيا عجباً كيف يعصى الإله

¹ - مختارات البارودي، (٤/٤٦٢).

أم كيف يجحدُّ الجاحدُ

ولله في كلِّ تحريكةٍ

وفي كلِّ تسكينةٍ شاهدُ

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ

تدلُّ على أنه الواحدُ

والعاقل الذي يريدني دليلاً يكفيه أن ينظر إلى نفسه، مما خلق؟ ومن خلقه؟ ومن جعل له السمع والبصر والفؤاد؟ ومن حباه نعمة العقل والتفكير؟ ومن الذي علمه ورياه؟ أليس هو الحكيم البصير؟! .
وأما الملحد فلو سقت له كل دليل لن يؤمن، لأنه يرى أن السبيل الوحيد للإيمان بالله رؤيته، وكأنه ليس ثمة طريق للعلم إلا الرؤية، وهذا مخالف للحق، فالرؤية إحدى وسائل المعرفة، وهي لا تلغي بقية الوسائل، ثم إن الرؤية لو تمت لآمن الناس جميعاً، وعند ذاك لا حاجة للرسول ولا الرسائل ولا إلى الثواب والعقاب، لأن اللجنة لمن يؤمن بالغيب، والنار لمنكره، فإذا آمن الجميع لم تكن ثمة حاجة إلى ثواب أو عقاب، ثم إن رؤية الله تعالى لا تكون بناء على رغباتنا وأهوائنا، لأنه لو أراد أن نراه لكشف الحجب عن وجهه الكريم، فكيف نطلب منه ما لم يرد في الحياة الدنيا؟

ثم هل رأينا نحن كل شيء في الوجود ولم يبق إلا ربنا؟ هنالك مليارات من النجوم لم نرها بعد، ولم يصل نورها إلى الأرض كما يذكر علماء الفلك، فإذا عمجزنا عن رؤية المخلوق ألا نعجز عن رؤية الخالق؟ صدق الله إذ يقول: (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الأنعام: ١٠٣).

إن هناك كثيراً من الأشياء نحس بها ولا نراها، الذرة مثلاً ومكوناتها من النترونات والإلكترونات والبروتونات لا نراها، والقوى الكهربائية والمغناطيسية والصوت والهواء كلها لا نراها، حتى الأفكار التي نؤمن بها لا نراها ولا نعرف كيف تخزن في الذاكرة، فكيف نطلب مع ضعف قوانا النفسية والبصرية رؤية الله تعالى؟ إننا لا نملك القدرة على رؤية كثير من المخلوقات فأنى نملك القدرة على رؤية الخالق عز وجل؟ بل إن الملائكة المقربين لم يروا ربه، فهذا جبريل عليه السلام الذي رفع بريشة من أحد أجنحته مدائن قوم لوط إلى السماء وجعل عاليها سافلها لم ير ربه، وهو صاحب القوى الشديدة، قال تعالى في وصفه: (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) (النجم: ٥)، فهو أمين وحي السماء، ومع هذا فليس باستطاعته رؤية ربه، فهل يراه الملحد الذي صار أسفل سافلين؟ وغرق في مستنقع الأهواء والشهوات؟ روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (سألت جبريل: هل ترى ربك؟ قال: إن بيني وبينه سبعين حجاباً من نور، لو رأيت أدناها لاحترقت) رواه الطبراني^١.

ومعلوم أن كلهم الله موسى عليه السلام طلب رؤية الله فكان الجواب: (لن تراني)، قال تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ

^١ - كنز العمال، (٤٤٨/١٤)، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥م..

فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) (الأعراف: ١٤٣).

فإذا كان أمين الوحي وكليم الله لم يريا ربهما في الدنيا، وهما من هما قريباً وطهارة، فهل يعقل أن يراه ملاحدة القرن العشرين؟ علما بأن رؤية الأنبياء لله من أجل الشوق والمحبة والاستمتاع بالنظر إلى وجهه الكريم وليست بقصد الإيمان به، فهم مؤمنون به بالفطرة.

إن رؤية الله ليست هي الطريق لمعرفة في الدنيا، وإنما يعرف ربنا من آثار قدرته، ومخلوقاته، وهذه الآثار والمخلوقات لا حصر لها، مما يجعل أمر وجود الله فوق الشك، وبالمقابل هل لنا أن نطلب من الملحددين دليلاً واحداً على عدم وجود الخالق عز وجل؟ إن عليهم أن يثبتوا صحة دعواهم لو كانوا صادقين، ولكن ليس لهم دليل واحد يقوم على ساق، وإنما يستند إلحادهم على الشهوات والأهواء، والشكوك والشبهات الباطلة، لا على العلم، لأن العلم حجة على الإلحاد وأهله وليس العكس.

قال بعضهم لأحد الملاحدة بعد حوار طويل:

- هل تصدق بوجود الله تعالى لو جئتك بأدلة علمية صحيحة لا شك فيها على وجوده؟
- نعم، ولكن حدد موعداً نلتقي به.
- سأتيك بها غداً، وتؤمن بها إن شاء الله، ولكن قل لي لو أنك آمنت، فهل كان الله موجوداً قبل إيمانك وكنت تنكره، أم وجد منذ آمنت به؟
- بل هو موجود قبل أن أومن به.
- أستطيع أن أؤكد لك الآن بأن الله موجود، وأنت تجحد به، وتريد الأدلة التي تزيل جحودك لا التي تثبت وجوده سبحانه، وهذه الأدلة سأعرضها عليك غداً، وتقر بها إذا كنت موضوعياً.
- لا... لا أقبل ما تقول.

وبهت الذي كفر، وضحك منه الناس.

فالمطلوب أن لا ندع الملحد يتبجح بإنكاره، وإنما نلزمه بأن يأتي بالدليل على إنكاره، فمن علم حجة على من لم يعلم وليس العكس، يقول الدكتور يوسف القرضاوي: (إن الذين جادلوا في وجود الله قلة مغمورة في كل عصر، معظمهم ممن جرفتهم الشهوات، وغلبتهم الغرائز الدنيا، فبرروا هبوطهم وانحرافهم بالإلحاد، وإنكار وجود الخالق الأعلى، حتى لا يحاسبهم أحد، ولا يحاسبوا أنفسهم على السقوط، والانغماس في الملذات البهيمية، ولا غرو إن قال بعض المفكرين في إلحاد هذا النوع من الناس: إنه إلحاد بطن وفرج لا إلحاد عقل وفكر، يعني أنهم

١ - رؤية الله حق في الدار الآخرة لأهل الجنة، انظر: العقيدة الطحاوية، بشرح الألباني، الطبعة الأولى، ص (٢٦)، نشر المكتب الإسلامي.

ينحلون أولاً، ثم يلحدون ثانياً، وبتعبير علماء النفس: إن الإلحاد والإنكار عندهم ضرب من الحيل اللا شعورية لجأوا إليه لتبرير انحرافهم والدفاع عن سقوطهم وسوء سلوكهم، وتغطية ضعفهم أمام الشهوات والملذات)^١

نحمد الله تعالى فلقد هوت إمبراطورية الإلحاد في أواخر القرن العشرين، وعادت حرية العبادة مفتوحة أمام الناس جميعاً، بعد أن عانى الناس من القهر الذي مارسه الشيوعية فحرمتهم حق التعبير وحق التملك، وقبل ذلك كله حرمتهم من الإيمان بالله العزيز العليم، فأقامت السجون والمعتقلات وحملات التطهير لكل من آمن بالله واليوم الآخر، وكان الذنب هو الإيمان بالله تعالى، قال تعالى: (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (البروج: ٨)

^١ - من كتاب وجود الله، للقرضاوي، ص (١٠)، نشر مكتبة وهبة.

مفاهيم تربوية فاسدة: إذا لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب

يأتي خراب الحياة الاجتماعية من خراب القيم التي تسود فيها، ومن القيم الفاسدة أن الحياة غابة، وهي صراع بين القوي والضعيف، فعليك أن تكون شرساً مع الآخرين، وأن تتمثل بصفات الجبارين المعتدين حتى لا تؤكل، فإما أن تكون ذئباً بين ذئاب الحياة، أو تكون فريسة لتلك الذئاب، فلا مكان للضعفاء في الأرض، ولا رحمة ولا قانون عند الأقوياء، ومهما كانت الحملان وديعة وبريئة، فإن هذا مما يغري الذئب بالسطو والاعتداء، فعليك في قانون الغابة أن تكون مفترساً حتى تسلم من أذى الأشرار، قال زهير¹:

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه

يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وكلمة: (إذا لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب) تسمعها مرارا من مختلف طبقات الناس، وهذه الكلمة الموجزة تحمل مضموناً كاملاً للحياة، ولو تمثلنا بها ضد أعدائنا من الغزاة والمحتلين لكان الأمر سهلاً، ولكن المؤسف أن تتمثل بها في مجتمعاتنا الإسلامية ضد بعضنا البعض، فالغني يأكل الفقير، والقوي يأكل الضعيف، والقاتل والسارق والمرتشى وجميع الخارجين على القانون يبررون أفعالهم القبيحة بمثل تلك الكلمة.

وهذه الكلمة يمكن أن ننظر إليها بمنظارين:

الأول: منظار الإنسان الذي يريد أن يحظى بما يستطيع من متاع الدنيا وحطامها بأية وسيلة كانت، فلا عجب لمثل هذا المنافس على مغامم الأرض أن تكون هذه الكلمة شعاره ومنهجه، ففما هو إلا ذئب يسيل لعابه عند رؤية كل فريسة، ويحمل في نفسه الحقد والشراسة تجاه المجتمع.

والثاني: منظار الإنسان الذي يريد أن يعيش حياة سوية، ملتزماً بهدي دينه، محترماً للقانون، فينال من المتاع ما قسم الله له، ويسعى في نصرة الحق وأداء الواجب، ومثل هذا لا يمكن أن يكون ذئباً يسعى لافتراس غيره، ولا أن يكون حملاً تلتهمه أنياب الذئاب، وإنما يسلك سبيل العفة والتسامي، وينهج نهج الملائكة الكرام لا نهج الحيوانات المفترسة، وينظر إلى القوة على أنها أداة لإحقاق الحق لا إخراسه ودعم الباطل، وهو يأبى الانخراط مع عصابة الذئاب الدنيوية التي تجمعها المصالح العاجلة، فهذا خير له من أن يكون ذئباً يعتدي على الناس ثم يقتصون منه يوم القيامة، فالمؤمن سيف من سيوف الله، يقيم الله به الحق والعدل، لا ذئب حقد وطمع وجشع.

إن الحياة في ظاهرها تبدو بأنها صراع بين القوي والضعيف، وفي حقيقتها هي صراع بين الخير والشر، والحق والباطل، إنها ابتلاء وامتحان للناس، وعلى العاقل أن يكون مع الحق والمنطق لا مع البطن والشهوة، بمعنى أن يكون عبداً ربانياً لا ذئباً بشرياً، وهو ما أشارت إليه آيات عدة، قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ

¹ - شرح القصائد العشر، للتبريزي، بتحقيق د. قباوة، ص (١٩٦)، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

الْحَقُّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا
الْحَيَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (المائدة: ٤٨)، وقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ
خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)
(الأنعام: ١٦٥)، وقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيُقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)
(هود: ٧). وقال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) (الملك: ٢).

وعليه فإن فسلوك الإنسان يجب أن لا يحكمه الحرص والطمع والنزوع نحو تحقيق المصالح المادية المؤقتة الفانية،
وإنما يجب أن يكون وفق منهج الله في الأرض، فلا يحشر نفسه في زمرة أهل البغي والظلم والعدوان، ولا مع
المستكبرين والمفسدين، ولا يكون عوناً لهم، ولا يتكالب على الدنيا بقصد جمعها ولو على حساب الآخرين، بل
هو على النقيض من ذلك تماماً، يقف مع المظلوم ضد ظالمه، ومع الضعيف ضد القوي، وقد يدفع حياته ثمناً
لموقف شريف، وهيئات أن يكون ذنباً مثل غيره، يصول ويجول ليأكل لحوم البشر، ويأخذ الدنيا من دماء
ضحايها ودموعهم وأشلائهم، فالدنيا رحلة مؤقتة، وفي الآخرة قصاص عادل، والميزان فيها يزن بالذرة فما عدله
من ميزان! قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِمَّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ
بِعَعْضِكُمْ بَعْضًا أَيُّبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)
(الحجرات: ١٢).

إن الحياة ليست غابة إلا في مفهوم من لا يؤمن بآخرة ولا جنة ولا نار، فهذا ينكب على الدنيا لا
يطلب سواها، فهو يعمل كل ألوان الجرائم لأنه لا يؤمن بثواب ولا عقاب، أما المؤمن فهيهات أن يعتدي لأن
الله لا يحب المعتدين، ولا يظلم، وإنما يكون من حراس العدالة، ومما يؤكد ذلك وصايا الخلفاء الراشدين رضي الله
عنهم لقادة جيوش الفتح، بأن يكونوا على أخلاقية عالية تناسب وعظمة الإسلام، فلا يُقتل طفل ولا شيخ
ولا امرأة، ولا يحرق زرع، ولا تهدم دور العبادة، فلو كان المؤمنون ينظرون للحياة على أنها غابة لفعلا ما فعله
هولاكو والصليبيون من قبله من قتل للعلماء، وحرق للكتب، واعتداء على الأعراس... ولكن هيهات لمن
لامست قلوبهم بشاشة الإيمان أن يكونوا وحوشاً أو ذئاباً، وإنما كانوا ملائكة رحمة تنقل البشرية من جور الأديان
إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

ويجب أن نفرق بين الحرص على القوة وبين العدوان، فالقوة في جميع صورها مطلوبة للأمة أفراد
وجماعات، ولكنها قوة مضبوطة بقوانين العدالة، ومحكومة بأخلاقية عالية، وليست قوة بطش وإرهاب، والمسلم
أرفع من أن تكون أخلاقه قائمة على مبدأ: إذا لم تكن ذنباً أكلتك الذئاب، لأنه ينظر إلى أفراد المجتمع على
أنهم إخوة له، يتعاون معهم ولا يتصارع، ويصفح عنهم إذا أساؤوا، قال تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا
تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) (المائدة: من الآية ٢)، وقال تعالى: (وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ

المُحْسِنِينَ) (آل عمران: من الآية ١٣٤)، وقال: (وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) (الشورى: ٣٧)، وقال: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) (الفرقان: ٦٣).

وأما في المجتمعات غير المسلمة فالحال نفسه، فلا يكون ذنباً أيضاً، بل هو أكثر التزاماً بالقيم والأخلاق، لذا فقد أسلم كثير من الشعوب في جنوب شرق آسيا على أيدي تجار المسلمين لما رأوا أخلاقهم الرفيعة، فالمؤمن يجب أن يحمل إسلامه أين ما ذهب، وأن يكون قدوة للناس في فعل الخيرات وترك المنكرات، فإذا ما رأوه أحبوا الإسلام، وما لم يكن الأمر كذلك فهو المسئول الأول عن ما يقع للإسلام من عقبات في تلك المجتمعات، لأنه لم يسلك سلوكاً قويمًا، ولم يبين للناس الدعوة بالحسنى، قال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل: ١٢٥).

مرة أخرى نقول: إن المطالبة بالحق والدفاع عنه سواء كان شخصياً أم جماعياً أمر مشروع في الإسلام، ولكن ليس معنى المطالبة أن يكون المرء ذنباً، لأن الذئاب فيها الغدر والخسة، وإنما ليكن كما كان خالد بن الوليد سيفاً من سيوف الله تعالى، أو كما كان حمزة أسد الله ورسوله، وليتعد عن خسة الذئاب.

إن عبارة إذا لم تكن ذنباً أكلتك الذئاب علمت كثيراً من الناشئة أن يكونوا بمنتهى الوقاحة والشراسة مع الآخرين، وعلمتهم الانتهازية واللامسئولية، وهذه العبارة لا ينبغي أن تكون مساعفة في أمة الرحمة والنور، كيف يتصدى الناس للإصلاح إذاً ويتحملون في سبيله التبعات إذا كان هذا منطقتهم؟ إن المصلح يعطي ويتحمل ويصبر على كل ما تثيره ذئاب الشر ضده، فهل يستطيع أداء رسالته إذا كان ذنباً مثلهم؟ أم يكون عدواً للإصلاح وعدواً للمصلحين؟

ألا ما أغنانا عن مثل هذه المفاهيم الفاسدة: إذا لم تكن ذنباً أكلتك الذئاب! وما أحوجننا إلى العودة إلى الأخلاقية الصادقة التي دعا إليها القرآن الكريم، قال تعالى: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (فصلت: ٣٤).

ما أحوجننا إلى أن نربي أجيالنا الصاعدة على القيم الإيجابية من المحبة والتسامح والتعاون، أن نربيهم على احترام الآخر والالتزام بالقانون ونبد الفوضى، وحب الوطن، وتلبية النداء، واجتناب الظلم والعدوان.

إن الإنسان في الحياة ينبغي له أن يحصل حقوقه، ويطالب بها، فإذا ظلم ولم ينصفه القانون خير له من أن يظلم، لأن الله سينتصر للمظلوم من الظالم، جاء في حديث نبوي طويل يذكر الثلاثة الذين تكلموا في المهد قصة فيها عبرة نذكرها: (... وبيننا صبي يرضع من أمه، فمر رجل راكب على دابة فارهة، وشارة حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا. فترك الثدي وأقبل إليه، فنظر إليه فقال: اللهم لا تجعلني مثله. ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع... ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنت سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت

أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر إليها، فقال: اللهم اجعلني مثلها. فهناك تراجع الحديث، فقالت: مر رجل حسن الهيئة، فقلت: اللهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله. ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها، ويقولون: زنت سرت، فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها. فقلت: اللهم اجعلني مثلها. قال: إن ذلك الرجل كان جباراً، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها: زنت سرت، ولم تزن ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلني مثلها).^١

وخلاصة القول: إن الأفعال بعواقبها يوم القيامة، وليست في الدنيا وحسب، لذا ينبغي أن نربي أجيالنا على المبادرة والمنافسة الشريفة بعيداً عن لغة الصراع والعدوان، فلم تتطور المجتمعات الأخرى إلا بوجود القانون واحترامه، ولم يتأخر من تأخر في هذا العالم إلا بسبب الفوضى والصراع الاجتماعي والانتهازية، حيث يرى كثير من الأفراد في البلاد المتخلفة أن من حقهم أن يفعلوا بالآخرين ما يشاؤون، طالما أنهم يعتقدون بأن الدنيا غابة وسكانها ذئاب، متناسين بأن هنالك جزاء عادلاً ينتظر الجميع، قال تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) (ابراهيم: ٤٢).

كلمة أخيرة:

قد يورد بعضهم العبارة السابقة: إذا لم تكن ذنباً أكلتك الذئاب بقصد المبادرة واليقظة، ولكن نبل القصد ينبغي أن لا يجعلنا نستخدم هكذا عبارات، لأن الكلمة قد تفسر حسب سياقها، وأولى أن نستخدم قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا تُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً) (النساء: ٧١)، وقوله عليه السلام: (المؤمن كيس فطن)، وفي المأثور من الشعر العربي ما يثري ويغني، فأكثره كان في الحماسة والفروسية والنبل واليقظة والإقدام، قال طرفة ابن العبد:^٢

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كراس الحية المتوقد

وقال معن بن أوس المزني:^٣

إذا أنت لم تنصف أحاك وجدته

على طرف المجران إن كان يعقل

ويركب حد السيف من أن تضيئه

^١ - من حديث متفق عليه عن أبي هريرة، انظر: رياض الصالحين، للنووي، بتحقيق عبد العزيز رباح وآخرين، ص (١٣٤-١٣٥)، دار المأمون للتراث، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠م.

^٢ - شرح القصائد العشر، للتبريزي، بتحقيق د. قباوة، ص (١٤٨)، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

^٣ - معاهد التنصيص، للعباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (٤/٤) عالم الكتب.

إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

بناء الواقع الاجتماعي

من الملاحظ على الأمة العربية والإسلامية أنها تفتخر بالماضي في أشعارها وخطبها وصحفها ومناسباتها القومية، وصار خير وسيلة للهروب من واقعنا المزري وأزمتنا الحضارية أن نتحدث عن الماضي، فنقول للغرب وهو يسومنا سوء العذاب: نحن الذين علمناك في الأندلس وصقلية، وجلبنا لك عصارة الفكر ابشري وخلاصة الحضارات، ووضعناها بين يديك لتنتقل منها نحو التقدم والمدنية، نحن الذين جئنا بحقوق الإنسان قبل أن تنص عليها الأمم المتحدة، نحن الذي اخترنا الله لإنقاذ البشرية.. نعيش في الماضي متكئين على أصالة الأنساب وبطولة الأجداد وكأننا لم نقرأ يوماً قول الشاعر ابن الوردى: ^١

لا تقل أصلي وفصلي أبداً

إنما أصل الفتى ما قد حصل

واقعنا كأمة مزر أيما إزراء، فإذا كان المتنبي يرى أن هذه الأمة صارت مضحكة الأمم في القرن الرابع الهجري عندما جعلت الدين صورة شكلية في حياتها وليس مضموناً إنسانياً تعبواً لطاقت الأمة، فقال: ^٢

أغايه الدين أن تحفوا شواربكم

يا أمةً َّ ضحكت من جهلها الأمم

علما بأن الأمة كانت في أوج نهضتها الحضارية في القرن الرابع الهجري، فماذا عساه يقول لو كان حياً بيننا، وهو يرى أننا أقل الأمم نمواً حضارياً وفكرياً وثقافياً، وأكثرها جهلاً وتخلفاً، حتى صارت بعض البلدان الإسلامية موطن دفن للنفايات النووية، وزراعة المخدرات، والصراعات الدموية التي لا تنتهي.

بناء الحضارة لا يكون بنقل البضائع الأوروبية واليابانية إلى أسواقنا، فهذا نشاط حضاري وليس بناء حضارياً، وإنما بناء الحضارة يكون عندما تستطيع أن تفرض وجودك واحترامك في هذا العالم، بحيث يكون لك الصدر دون غيرك، قال أبو فراس: ^٣

ونحن أناس ُّ لا توسط عندنا

لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وعندما تكون في مقدمة هذا العالم كما قال الحطية: ^٤

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم

^١ - جواهر الأدب، للهاشمي، ص (٦٨٥)، دار الكتب العلمية.

^٢ - مختارات البارودي، (٤/٤٤٠).

^٣ - مختارات البارودي، (٢/٨٥).

^٤ - البيان والتبيين، للجاحظ، بتحقيق عبد السلام هارون، (٤/٣٨). مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

ومن يساوي بأنفِ الناقَةِ الذنبا

وعندما يسير العالم وراءك، لا أن تسير وراء غيرك، قال الفرزدق: ^١

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا

وإن نحنُ أومأنا إلى الناس وقفوا

لقد أقام سلفنا حضارة المنتصر في هذا العالم لا حضارة المهزوم، واستطاعوا أن يطوروا حياة الناس إلى أعلى

درجات الرقي العلمي والإنساني لأول مرة في تاريخ البشرية كلها، فماذا نحن فاعلون؟

إن الافتخار بالماضي لا شك بأنه قد يولد الحماس للمستقبل، ولكن الحماس لا يكفي، فلا بد من

العمل، لقد استطاع معظم العالم العربي أن يتخلص من الاستعمار منذ منتصف القرن الماضي تقريباً، ولكن

مرحلة البناء وهي الأصعب لا تزال في بداياتها، إذ لا زال هنالك:

- فقر وجوع في بلاد كثيرة، ونكبات وحروب في بلاد أخرى.

- عجز في القدرات الدفاعية أمام أي غزو خارجي محتمل.

- مشردون ولاجئون في مواقع عدة، وأطفال مشردون يولدون في المخيمات أو على الأرصفة.

- مقدسات تن تحت وطأة الاحتلال.

- شعوب تبحث عن زجاجة ماء فلا تجدها، وجوع وفقير وخوف ورعب وجهل وتحلف في شتى

الميادين.

وكأننا لسنا جزءاً من هذا العالم الذي يشهد النمو والازدهار الاقتصادي في شرقه وغربه، وكأنه محكوم علينا

بالفناء، محاصرون من كل الجهات، يتقاسمنا الأكلة من كل حذب وصوب، ومنتظر المزيد من الهزائم والويلات مع

ولادة كل فجر جديد.

أكتب هذه الكلمات وأنا أرى عدداً من الشعراء والكتاب والعلماء يصفون العصر المملوكي بأنه من

عصور الانحطاط التي مزقت الأمة، وهذه جناية عظيمة وبهتان عظيم، فكم تحقق من الانتصارات الخالدة في

عصر المماليك، وكم أقيم من دور العلم الكبيرة والمساجد الواسعة والقلاع الحصينة، لقد كانت أمتنا على كل ما

في العصر المملوكي من مثالب وشوائب أفضل حالاً منها الآن، ففي ذلك العصر وقف ابن حجلة يقول بمناسبة

بناء مدرسة السلطان حسن بالقلعة التي قيل إن إيوانها على قدر إيوان كسرى أنوشروان في الطول والعرض: ^٢

لسنا وإن كرمتُ أوائلنا

يوماً على الأنسابِ نتكلُّ

نبي كما كانتُ أوائلنا

^١ - علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، ص (٧١)، دار النهضة العربية.

^٢ - الأدب في العصر المملوكي، للدكتور محمد زغلول سلام، (١/١١٥)، دار المعارف بمصر.

تبني ونفعل فوق ما فعلوا

وما أجمل عبارة (ونفعل فوق ما فعلوا). وباليوم نفعل ربع ما فعلوا!

وصفوة القول بأننا في حاجة ملحة إلى مشروع حضاري نهضوي يمسح عن هذه الأمة الجمود والتخلف الذي لحق بها في عصر العلم والتكنولوجيا، وينبغي أن يترجم هذا المشروع على أرض الواقع لا أن يبقى حبيس الأدراج أو بين رفوف المكتبات، بانتظار المستقبل المجهول.

من وحي الحج

الحج فريضة من أسمى فرائض هذا الدين، فيه يلتقي المسلمون من كل بقاع الأرض، يدعون ربهم ويلبون ندائه، ويطلبون منه تباركت أسماؤه وتقدست ذاته أن يحقق لهم عز الدنيا والآخرة، وهم يهتفون بصوت مدو واحد الدعاء العذب الخالد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

والحج فريضة تؤدى مرة واحدة في العمر، قال تعالى: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (آل عمران: من الآية ٩٧) يأتي الإنسان فيغسل ذنوبه، ويعود إلى بلده كيوم ولدته أمه طهراً وصفاء ونقاء وتوبة، لبدأ حياته من جديد على قواعد الإسلام، حتى يلاقي ربه بالأعمال الصالحة، فيلقاه ربه بالعتق والثواب.

وفي الحج حكم وأسرار شتى ذكرها العلماء الأجلاء، منها أنه تجرد حقيقي لله عز وجل، وعزوف عن الدنيا، وهو جهاد لا قتال فيه كما ذكر النبي عليه السلام، وذلك لما فيه من جهد ومشقة وإنفاق، والتجمع فيه يشبه تجمع يوم القيامة، ولبس الإحرام يشبه أكفان القبر، وشرب زمزم شفاء للقسيم، والتقاء المسلمين فيه يحقق وحدتهم وتعاونهم وتآزرهم وتناصحهم بالسير على منهج الله عز وجل أحبباً وإخواناً.

والطريق إلى بيت الله الحرام كانت عبر العصور الماضية شاقة غير سالكة في بعض الأحيان، حيث يتعرش المرء بقطاع الطريق، هؤلاء الذين تحدث عنهم الغزالي وذكر ما يوقعونه من الرعب في قلوب الحجاج، هذا الرعب الذي لا شبیه له إلا سؤال الملكين في وحشة القبر، فقال: (وأما دخول البادية إلى الميقات، ومشاهدة تلك العقبات، فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة، وما بينهما من الأهوال والمطالبات، وليتذكر من هول قطاع الطريق هول سؤال منكر ونكير، ومن سباع البوادي عقارب القبر وديدانه وما فيه من الأفاعي).^١

فأي هول ذاك الهول الذي يشبه سؤال الملكين؟! وكم هي الصعوبة في الوصول إلى حرم الله الآمن، وقد نصب قطاع الطريق من حوله شراكتهم؟! لقد استمر انعدام الأمن حتى نهاية الدولة العثمانية تقريباً، فحين أقامت الدولة العثمانية الخط الحديدي الحجازي، لم تنس أن تقيم (محطات على طول الخط، وكان يفصل بين كل محطة وأخرى زهاء عشرين كيلو متراً، وكانت المحطات تستخدم أيضاً قلاعاً لحراسة الخط الحديدي وأسلاك البرق ومكاتب الموظفين، ومساكنهم من غارات البدو).^٢

^١ - إحياء علوم الدين، (٢٧٣/١) المكتبة التجارية الكبرى.

^٢ - الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، للدكتور الشناوي، (٣/١٣٣٠)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مطبعة جامعة القاهرة،

(وكان الوقت الذي يستغرقه القطار في التحرك من دمشق إلى المدينة اثنتين وستين ساعة فقط، أما بقية الوقت فكان يضيع في وقوف القطار في المحطات، وتغيير القاطرات، وتجنب السير ليلاً في الليالي غير القمرية، أخذاً بأسباب الحذر من هجوم قبائل البدو على عربات القطار).^١

وليت الأمر قد اقتصر على قطع الطريق، بل لقد عاد بعض البدو إلى جاهليتهم، يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب في وصف حال البدو في زمانه: (إن العلماء في زماننا يقولون: من قال لا إله إلا الله. فهو المسلم، حرام المال و الدم، لا يُكفر ولا يُقاتل، حتى إنهم يصرحون بذلك في شأن البدو الذين يكذبون بالبعث، وينكرون الشرائع، ويزعمون أن شرعهم الباطل هو حق الله، ولو طلب أحد منهم خصمه أن يخاصمه عند شرع الله لعدوه من أنكر المنكرات، بل من حيث الجملة: إنهم يكفرون بالقرآن من أوله إلى آخره، ويكفرون بدين الرسول كله، مع إقرارهم بذلك بألسنتهم وإقرارهم أن شرعهم أحدثه آباؤهم لهم كفرةً بشرع الله، وعلماء الوقت يعترفون بهذا كله، ويقولون: ما فيهم من الإسلام شعرة، وهذا القول تلقفته العامة عن علمائهم، وأنكروا به ما بينه الله ورسوله، بل كفروا من صدق الله ورسوله في هذه المسألة، وقالوا من كفر مسلماً فقد كفر، والمسلم عندهم الذي ليس معه من الإسلام شعرة، إلا أنه يقول بلسانه: لا إله إلا الله، وهو أبعد الناس عن فهمها وتحقيق مطلوبها علماً وعقيدة وعملاً).^٢

هكذا كانت الطريق إلى الحج غير آمنة إلى أن قامت ثورة الاتصالات ونهضة المواصلات، فصار المرء يستخدم الطائرات ويصل بأقل الوقت من أدنى الأرض إلى أقصاها، وهذا من فضله تعالى الذي علم الإنسان ما لم يعلم.

وإذا كان الحج هو الشاهد الأكبر على عظمة الإسلام حيث يلتقي الناس من كل الشعوب والجنسيات من شتى قارات العالم على صعيد واحد من أجل غاية واحدة، فهو لا يخلو من بعض المظاهر السلبية التي ينبغي التحذير منها مثل: كشف العورات أحياناً، والتبول في الطرقات، وافتراش الساحات العامة، وظاهرة التسول وانتشار المتسولين، والتزاحم عند الجمرات والحجر الأسود، ورمي الأحذية والأوساخ بدلا من الحصيات وهو من البدع المنكرة، فالمطلوب من الحجاج الكرام مراعاة قدسية الزمان وحرمة المكان، والتخلق بالأخلاق الإسلامية، فهم ضيوف الرحمن، وعليهم إذا عادوا إلى أوطانهم أن يحببوا الناس بهذه الرحلة، ولا يذكروا السلبيات التي رأوها من ازدحام وصعوبات لا تخلو منها أي رحلة سفر عادية، لأن في ذلك تنفير للآخرين عن حج البيت المعظم، والله الموفق للخيرات.

^١ - المرجع السابق، (٣/١٣٣١).

^٢ - مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، تحقيق محمد حامد الفقي، ص (٢٧-٢٨)، نشر مكتبة السنة المحمدية، ١٩٥٦ م.

هل انتهت ظاهرة الرق في العصر الحديث؟

يخطئ من يظن أن عصر الرق قد انتهى، وأن الناس أحرار فيما يقولون ويعتقدون ويفعلون، ونحن في بداية الألفية الثالثة لميلاد المسيح عليه السلام. فالرق في هذا العصر تغير شكلاً وبقي مضموناً، ومن ثم فهو لم ينته بعد، بل بدأ انطلاقة الجديدة في ظل التكنولوجيا المعاصرة، التي تدعمه بكل أسباب القوة من مال وسلاح ودعاية، فما أكثر صور الرق في هذا العصر!

فلاستعمار مثلاً أعطى لنفسه حق نهب الشعوب المغلوبة، والوصاية عليها، وسحق مجاهديها وثوارها تحت دباباته وجحافل جنوده، ثم نجده يفلسف تسلطه على الشعوب المسحوقة بمبررات هي في النهاية أقرب على الكذب والألاعيب منها إلى الحقيقة والواقع. إن هذا الرق يصفد الشعوب الفقيرة بمعاهدات طويلة الأجل، ويربطها بسلسلة من التحالفات المشبوهة، ويجعلها سوقاً لمنتجات المستعمر، ومصدراً لمواد الصناعة الأولية، ويسلط عليها من أذنابه من يستعبدتها باسم الحرية، فيكتم الأفواه، ويسحق الرؤوس، ويحرق بيوت العبادة، ويثلم كل القيم الفاضلة والأعراف الإنسانية الرشيدة، يحدث كل ذلك ابتغاء رضاء العقل المدبر للفتن والمتمثل بالاستعمار.

وهناك رق آخر، وهو رق المرأة، حيث تم تجريدتها في كثير من البلدان من الحياء، وتحويلها إلى دمية في أيدي العابثين بها، ويجري هذا كله باسم القانون وتحت شعار تحرير المرأة، فجد عملية الغواية والانفلات يروج لها في الطرقات باسم الفن والتقدم، والعملية كلها لون من ألوان الرق، حيث صارت المرأة تستخدم للدعاية والإعلان بعيداً عن دورها كأم ومربية للمجتمع، فلكي تروج أية بضاعة ولو كانت علب السمن أو الأحذية، فما عليك إلا أن تبحث عن المرأة المناسبة التي تروج لك الإعلان، ابتزاز مقرف، وانحطاط لم تعرف له البشرية مثيلاً من قبل.

صورة ثالثة من صور الرق وهي رق العلم الذي تحتجز الدول العظمى أسرارها، ولا تسمح لغيرها إلا بهامش منه، وإذا حاولت دولة أن تدور حول الحمى نزلت عليها اللعنة، وقذفت بالحمم وتعرضت للردع والحصار والعقوبات.

صورة رابعة من صور الرق وهي رق الفكر والمعلومات، فمعظم الناس تستقي معلوماتها اليوم من وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، وهم يأخذون ما تقوله وسائل الإعلام على أنه حقيقة ولو كان عار من الحقيقة، فالكسل وحب الراحة يجعلان الناس تقبل على وسائل الإعلام برغبة كبيرة، وتردد ما تسمعه دون تمحيص ولا تثبت، وقد استغلت وسائل الإعلام هذا فسخرت نفسها لأغراض دعائية وتجارية وسياسية بعيداً عن المهنية والموضوعية، وقامت بغسل عقول الناس أو تكييفها وفق هوى المؤسسة التي تديرها.

صورة خامسة من صور الرق وهي رق الفقر والمجاعات، وهنا تنتشر فرق الإغاثة الأجنبية لتقدم اللقمة مقابل الكرامة، والدواء مقابل الولاء، وقد يضطر الجائع إلى الخضوع، فالجوع كافر كما يقال.

صورة سادسة من صور الرق وهي رق الحروب المنتشرة بين الجيران والإخوان، حيث ينتهي الأمر بجميع المتحاربين إلى الركوع عند رغبة بائعي الأسلحة وشروطهم، فيما تحترق شعوبهم بنيران تلك الأسلحة التي تدمر البناء المشيد، وتجعل الناس طراً كالعبيد.

صورة سابعة من صور الرق وهي رق المودة والأزياء، فما أكثر المجالات في هذا الباب؟! وكم تنهب الموضة من جيوب الرجال والنساء معاً؟! وأسوأ ما في الأمر ليس النفقات الباهظة وحسب، بل هو انعدام الشخصية والتبعية للآخرين، وكفى بهذا تحللاً وضعفاً، إنه رق عن طواعية، وكفى بهذا ذلة لفاعله.

صورة ثامنة من صور الرق تحدث عنها العقاد وهي رق الوظيفة في القرن العشرين، وذلك تحت عنوان: (الاستخدام رق القرن العشرين)، وكان رحمه الله تعالى أول موظف مصري استقال من وظيفة حكومية بمحض اختياره، يوم كانت الاستقالة من الوظيفة والانتحار في طبقة واحدة من الغربة وخطل الرأي عند الأكثرين، بل ربما كانت حوادث الاستقالة أندر من حوادث الانتحار، وكان رحمه الله لا يعيب الوظيفة في ذاتها، وإنما يعيبها إذا كانت المستقبل الوحيد أمام الشباب المتعلم، وعندما تكون عمالاً آلياً لا نصيب فيه للموظف الكبير والصغير غير التسخير.¹

صورة تاسعة من صور الرق، وهي الحكم الفردي المطلق الذي لا يستند إلى شرعية القانون والانتخاب، وقد تحدث عنه الكواكبي في كتاب طبائع الاستبداد، وهذا النوع من الرق موجود من عهد الفراعنة، وما زال باقياً، وإن كان آخذاً بالتقلص، قال تعالى يذكر سياسة فرعون: (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا

¹ - كتاب (أنا) للعقاد، ص (٧٥-٧٦) المكتبة العصرية، بيروت.

قَوْمًا فَاسِقِينَ) (الزخرف: ٥٤).

صورة عاشرة من صور الرق وهي رق العبودية لغير الله، وقد استشرى هذا الرق في عصرنا بسبب

الإلحاد والنزعات المادية في الفكر الإنساني، والعزلة السياسية والاجتماعية عن هدي الأنبياء.

فهناك من عبد هواه، قال تعالى: (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا) (الفرقان: ٤٣).

وهناك من عبد شهوات الدنيا وزينتها، قال تعالى: (فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ دِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) (النجم: ٢٩).

وهناك من عبد الشيطان، وهي عبادة موجودة من قديم الزمان، قال تعالى: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (يس: ٦٠).

وهناك من عبد الأصنام، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الأنعام: ٧٤).

وهناك من عبد الطاغوت، قال تعالى: (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) (المائدة: ٦٠).

وهناك من ينزع حق التشريع لنفسه، مع العلم بأن حق التشريع المطلق خاص بالله تعالى، فالذي أوجد البشر له الحق في أن يشرع لهم ما يصلح أمر دينهم وديناهم، وشرعته فيها العدل والرحمة للجميع، وفيها يتساوى الحاكم والمحكوم، أما أن يشرع الناس لبعضهم بعضاً ما لم يأذن به الله تعالى فهذا منتهى الاستعباد والرق، حيث جعل المشرع نفسه في رتبة أعلى من رتبة البشر، وفرض حق الوصاية عليهم، واخترع لهم من الشرائع والنظم ما لا يتفق مع فطرتهم والغرض من وجودهم، وطلب منهم الاستجابة لها، دون أن يأذن الله له بذلك، وهذه من أسوأ صور الرق والعبودية، حيث يعبد البشر بعضهم بعضاً من دون الله تعالى، قال تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (التوبة: ٣١).

وفي هذا النوع من الرق قد لا يشعر البشر بأنهم يؤدون عبودية لبشر مثلهم، ولا يستحق أحد أن يطاع من دون الله تعالى، ولا أن يتفوق عليهم بحق ليس له، وإنما ينتزعه ظلماً وطغياناً.

وختاماً نقول:

إن الرق لم ينته، وإنما تحول من صورة إلى أخرى، فقد بما كان السيد يملك الجسد دون الروح، فنجد بلاياً يقول: أحد أحد متحدياً صولة سيده أمية بن خلف، والصخرة على ظهره وهو يعذب في رمضاء مكة، أما اليوم فقد أطلقت حرية الجسد واستعبدت الروح، فتجد الإنسان متعباً وهو يجري وراء أشياء تستقطبه وتحكم فيه،

وهو لا يملك منها فراراً.

في الماضي كان السيد فرداً، واليوم قد يكون دولة أو أمة تستعمر الآخرين وتذيقهم ويل العبودية والذل والصغار. في الماضي يستطيع العبد أن يهرب من سيده، أو يشتري نفسه منه، أما اليوم فلا مهرب في الأرض، لأن السيد يملك من أدوات القهر والتجسس ما لا يترك مجالاً لحرية الآخرين ولو بالأحلام. في الماضي كانت العبودية ظاهرة في سوق النخاسة وأما اليوم فهي خفية لا شعورية، وسوق النخاسة قد تكون سوق المال والأعمال، أو سوق المودة والأزياء، أو سوق وسائل الإعلام التي تقول ما يملئ عليها. ليت البشرية تستطيع التخلص من رقها الجديد كما تخلصت من الرق القديم، فقد فاق رق هذا العصر كل جرائم الرق في تاريخ الإنسانية.

مشكلة الفراغ

هنالك مشكلة عامة لدى شباب اليوم وهي ما يسمى بالفراغ، فيحاولون قتل الوقت بالتسكع في الأماكن العامة، أو بالجرى وراء أخبار الفن والرياضة، وربما انصرف بعضهم إلى اللهو والمجون، أو وقع ضحية الإدمان بسبب رفاق السوء الذين يستغلون الصداقة لترويج الإدمان، وقتل الإنسان!! ولكن هل يشعر بالفراغ من كان له هدف كبير في الحياة؟ بالطبع كلا، وذلك لأن صاحب المبدأ أو الهدف يسعى للعمل لهذا المبدأ، فيستهلكه السعي لتحقيق غايته عن الإحساس بمشكلة الفراغ، فنحن أمة تحتاج إلى إعادة البناء ليكون لها موطأ قدم في عالم الغد، وتكون أمة مشاركة في صنع الحضارة فلا تعيش على هامش الحياة، فمن أحب أن يعمل للصالح العام لن يجد فراغاً سواء كان أديباً أو باحثاً أو عاملاً أو فلاحاً أو جندياً، فنحن بحاجة إلى الأدب الهادف، والبحث العلمي، وزيادة الإنتاج، ووفرة الغذاء، وحفظ الأمن، فكل شريف من أبناء هذه الأمة هو مكافح من موقعه الذي هو فيه.

وإنما يشعر بمشكلة الفراغ غالباً من لا هدف له في هذه الحياة، فهو يظن أن أداءه للعمل اليومي المنوط به هو غاية ما ينبغي عليه فعله، والوقت المتبقي له أن ينفقه كيفما يشاء، ومن هنا ينبع الإحساس بمشكلة الفراغ.

إن مشكلة الفراغ قائمة لدى قطاع كبير من الناس، ولا بد من حل لها، وإلا تحولت إلى مفسدة كبرى، والحل السليم لهذه المشكلة أن نضع لأنفسنا أهدافاً كبرى في الحياة، نسعى لتحقيقها، وهذه الأهداف يجب أن تتجاوز المطالب الأساسية للبدن من غذاء ومسكن ونحو ذلك، وإنما نسعى على ما هو أكبر من ذلك، وهو مجد الأمة التي ننتمي إليها، وهنا سنجد مهمة صعبة تشغلنا من المهدي حتى اللحد، ونذكر أن الفراغ لصاحب الهدف المقدس لم يكن إلا خرافة أو حلماً لم يعد له أي تأثير في حياته.

أما الذين يرون حل مشكلة الفراغ بالتواجد في أماكن الترفيه، فنؤكد لهم بأن الترفيه ضروري ولا شك للإنسان، وهو يجدد العزم والحركة في نفس الإنسان، ولكن ينبغي أن تكون هذه الأماكن منضبطة مع القواعد والآداب العامة، وأن لا يحتل الترفيه وقت الفراغ كله، وإلا ضاعت الأوقات في ما لا طائل فيه، هل يكفي الطالب بما تعلمه في المدرسة؟ وهل يكفي كل إنسان بما بذله في عمله؟ أم يحاول أن يكتسب المزيد في وقت الفراغ؟

ينبغي أن يكون هنالك وقت إضافي لتدريب المهارات الإنسانية وتطويرها، فالرياضة مطلوبة للجميع، ولكن رياضة البدن يجب أن تتكامل مع رياضة الفكر والروح، لا بد من صداقة مع الملعب والمكتبة في آن واحد، وإلا فماذا تفيد العضلات النافرة مع العقول الضامرة؟ وهل تنفع قوة الجسد مع سداحة العقل والتفكير؟ والفنون يمكن أن تسد مسدداً في هذا الباب، فنظم الشعر مثلاً يمكن أن يصقل مواهب الكثيرين وبملا أوقاتهم،

وقد كان الشافعي على علو قدره يشتغل به، وهو القائل: ^١

فلولا الشعر بالعلماء يزري

لكنت اليوم أشعر من لبيد

وكذلك الخط والرسم، ونحو ذلك من الفنون الجميلة.

والمشاركة بالجمعيات العلمية، أو الخيرية، أو أصدقاء المرضى، أو الكشافة، أو الجواله، أو الأندية الرياضية، والثقافية، يمكن أن تساعد المرء على التخلص من الفراغ والمساهمة في إعمار الحياة الاجتماعية.

والتردد على المجالس العامة للعلم والأدب، وحضور المحاضرات العامة والأمسيات الثقافية له دور كبير في تثقيف الإنسان، وزيادة وعيه وتحليصه من الفراغ.

والاشتراك بالمجلات العلمية والأدبية ومتابعتها يسهم في القضاء على مشكلة الفراغ، وحبذا لو وجدت مكتبة منزلية فيها كتاب من كل فن أو تخصص، وأن تحتوي على الكتب المسموعة بواسطة الأشرطة المسجلة، فقد يجب الإنسان مرات أن يسمع لا أن يقرأ.

واتخاذ الصديق الصالح له دوره أيضا في هذا المجال.

ولنحذر كل الحذر من إضاعة أوقات الفراغ في اللهو والمجون ومتابعة بعض الفضائيات المنحلة، فإن هذا قتل للوقت، وهدم للخلق، وضياح للعمر بلا طائل، وقد يقود إلى الفساد والإفساد، والجريمة والعقاب والعياذ بالله تعالى.

أخيرا نقول:

إن كثيراً ممن يعانون مشكلة الفراغ هم بحاجة إلى من يدلهم على الطريق الصحيح لحل هذه المشكلة، وهنا يبرز دور الفئات المتعلمة التي ينبغي لها أن تقود المجتمع نحو التقدم والرفق، فتساعد هذه الفئات أفراد المجتمع بالبحث عن جذور المشكلة والحل المناسب لها وفق خصوصية وإمكانات وظروف كل بقعة في هذا العالم، ويجب تشجيع البحث والدراسات الميدانية من أجل الإفادة من الطاقات المهدورة في العطل والمواسم، وحشد طاقات الأمة في الاتجاه الصحيح.

ينبغي أن ندرك الصعوبات التي تحيط بنا كأمة، وأن نواجهها بشجاعة، وأما الاسترخاء والكسل وهدر المال والوقت فلن يقودنا نحو العلا، ينبغي أن نبذل الإحساس بالفراغ من داخل النفس أولاً، ويجل مكانه شعور بأننا أمة تحتاج إلى مزيد من العمل لتنهض وتصحو، ولسنا أمة لديها الوقت لتلهو وتلعب، والله در أبي الطيب حين قال: ^٢

^١ - ديوان الشافعي وحكمه، جمع محمود بيجو، ص (٢٩)، الطبعة الأولى، دار المعرفة، دمشق.

^٢ - علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، ص (٩٤)، دار النهضة العربية.

لا تحسبِ المجدَ تمراً أنتَ آكلُهُ لن تبلغَ المجدَ حتى تلعقَ الصَّبْرَ

إن الذي يشعر بالفراغ في وقتنا هذا غالباً ما يكون إنساناً سلبياً بسيطاً يعيش بلا قضية أو هدف، وربما تجرد من كل حس حضاري وديني وقومي ووطني، فنحن أمة نقف على بوابة الموت والانقراض، والموت الحضاري هو أسوأ من الانقراض، ومن استشعر أزمة ما نحن فيه بادر إلى العمل، ومن لم يستشعر فهو مخدر أو نائم يحتاج إلى وخز ليصحو، ويحضرني هنا قول الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر وهو من مرّ المهجاء:¹

دع المكارمَ لا ترحلْ لبغيِّتها واقعدْ فإنك أنتَ الطاعمُ الكاسي

وهذا هو حالنا اليوم، يتولى أمرنا الأمم الأخرى، ويتحكم بمصيرنا أعداؤنا، ولا يوجد لنا موطأ قدم في عالم النهضة الصناعية، ونعيش لناكل ونشرب وليس العكس. فلتتحرك القوافل نحو المجد بدلاً من التسكع في الأسواق والمقاهي إذا كنا نعتقد بأن لنا دوراً في هذه الحياة مازال ينتظرنا لكي نقوم به.

¹ - الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص (٢٠٧)، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

من آداب السفر والابتعاث

للناس في مسألة السفر للغرب وغيره ثلاثة اتجاهات، هي:

الاتجاه الأول: يرى أصحابه أن أوروبا بلاد الفساد، ومأوى الضلال، ومستنقع اللهو والفجور، ويسرد أصحاب هذا الاتجاه أدلة كثيرة على ما يقولون، ثم ينتهون إلى نتيجة مؤداها رفض ومقاطعة كل ما هو أوروبي أو غربي ولا سيما في مجالات الثقافة والعقيدة، وأن لا ندع شبابنا يذهب إلى بلاد الغرب لكي نفوت عليه فرصة الانحلال والتفلة من الدين والأخلاق.

الاتجاه الثاني: يرى أصحابه بأن علينا اتباع أوروبا اتباعاً أعمى في كل شيء، وعلى الأجيال العربية أن تتثقف ثقافة أوروبية خالصة، وأن تسافر إلى أوروبا لتعرف الحضارة وتشاهد الرقي، ثم تعود إلى أوطانها حاملة معها العلم والمدنية، لتخرج أمتها من ظلمات الجهل والتخلف إلى نور العلم والمدنية.

الاتجاه الثالث: وهو أقل تطرفاً وأكثر موضوعية، فليست أوروبا كعبته التي يطوف بها، ولا هي موضع لعنته، فهي على جانب كبير من التقدم في العلوم البحتة من فيزياء وكيمياء وطب وميكانيك ورياضيات وهندسة وحاسب آلي وذرة وغير ذلك، ولكنها في المقابل في تخلف عظيم في جانب الدين والروح والأخلاق، صحيح بأن لديهم بعض العادات والتقاليد الحسنة، من صدق بالقول وإتقان للعمل، ووفاء للوعد، ولكن هذا لا يعني بأن أخلاقهم حسنة على الإطلاق، فالقوم لهم سجل أسود في المجون والانحلال.

إن السفر إلى أوروبا من أجل تلقي شهادة في علم التاريخ أو العقيدة أو النحو أمر مستهجن، لأن هنالك جامعات إسلامية تغني عن جامعات أوروبا في هذا الباب، أما السفر بقصد تلقي العلوم الطبيعية والطبية والكيميائية والذرية ونحو ذلك من التخصصات النادرة، فأمر مطلوب للنهضة من التخلف العلمي والصناعي الذي نعيش فيه.

ولكن هل يرسل أي طالب يريد الدراسة في أوروبا؟ أم نتقي الطالب المتميز خلقاً وذكاء؟ لا بد من مواصفات معينة لمن يبعث إلى بلاد الغرب، بحيث يعود الدارس جندياً مخلصاً لأمتة لا خنجراً في ظهرها، وقد مسخ قلبه، وصار عبداً للغالب ضد المغلوب، فلا يرى في أمتة إلا كل نقيصة، ولا يرى في الغرب إلا كل كمال! وهنالك ثمة ملاحظات لا بد منها هنا: وهي تتمثل في ضرورة البحث عن الاختصاصات النادرة عند الابتعاث، والتمسك بالقيم والأخلاق الحميدة، والحذر من الغواية والفساد وأصدقاء السوء، ولا بد من المرونة في التعامل مع الآخرين من غير تهاون في الثوابت، وينبغي للإنسان أن يكون صابراً ولا يستسلم لأي فكرة تبعث أثراً سلبياً في نفسه، وعليه أن يكون سفيراً لبلده وأهله ودينه، وأن يحاور الآخرين حول قضايا أمتة ومشكلاتها، ويجتهد في العلم ويحاول التفوق فيه، والاقتصاد في النفقة واجب لئلا يحتاج إلى الدين أو العمل، وإذا استطاع أن يذهب وقد أكمل شطر دينه بالإحصان فليفعل، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فإذا قضى مهمته

من السفر وحقق أربه فعليه أن يعود إلى وطنه لينشر فيه المعرفة التي تعلمها، ويخدم من خلالها أبناء جلدته.
إن الرحلة من أجل العلم ينبغي أن تكون محفوفة بآداب العلم وأخلاق العلماء، وأما الرحلة من أجل
السياحة فيدخل فيها أكثر الوصايا الأنفة، وحبذا لو كانت إلى بلد عربي أو مسلم أو إفريقي لكي ينتفع ذلك
البلد من عائدات السياحة فيساعد اقتصاده بذلك، وليتعرف الإنسان على البيئة التي حوله وتجاوره قبل أن
يتعرف على غيرها من البيئات الإنسانية المتعددة.

الفقر وإفرازاته الاجتماعية

الفقر من أشد أنواع البلاء التي تعترى حياة الناس، وهو صعب لا تحتمله النفس، وبه يتوعد الشيطان الناس عند الإنفاق، قال تعالى: (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: ٢٦٨).

والفقر بحد ذاته مذموم، إلا أن يكون عن عارض في سبيل الله تعالى، كأن يذهب مال المرء بسبب الهجرة، أو الجهاد، أو طلب العلم، أو النكبات والطوارئ، فهو هنا محمود لا لذاته، وإنما لصبر المؤمن عليه، قال تعالى: (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) (البقرة: ٢٧٣)، وفي الحديث: (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء).^١

إن النعيم الخالد هو في الجنة، والخسران الحقيقي هو خسران الدار الآخرة، والاستقرار في قعر الجحيم، ولذلك يستطيع الإنسان أن يصبر على بلاء الدنيا من فقر وغيره، ويدفع الأيام حتى يلقي ربه صابراً محتسباً، فينال جزيل الثواب، قال تعالى: (إِنَّمَا يُؤَفِّقُ الصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ بِعَدْرِ حِسَابٍ) (الزمر: من الآية ١٠)، ولكن صبر الفقير لا يعفي الأغنياء من المسؤولية تجاه الفقراء، قال تعالى: (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) (الذريات: ١٩)، فإذا سكت الفقير وتعفف فلا ينبغي للغني أن يتناسى حقوق الفقراء، وإذا طالب بعض الفقراء بحقهم الذي أعطاهم الله إياه وهو الزكاة، فمنعه الأغنياء، تولد في نفس الفقير الحقد على الغني، ونشأت صراعات دموية في المجتمع تنتهي به إلى التفكك والدمار، والحل الوحيد لتلافي ذلك هو انتزاع الزكاة من الأغنياء ولو عنوة كما فعل أبو بكر رضي الله عنه مع مانعيها من المرتدين.

إن المال ليس إلا فتنة، فطوبى لمن عمر به آخرته، ولم ينس ديناه، وويل لمن عمر به ديناه ونسي آخرته، والله هو الذي يرث كل شيء في النهاية، فمن أنفق فقد فاز وريح، ومن بخل فقد خاب وخسر، ولو علم الناس ما في الإنفاق من فضل ما أمسكوا شيئاً، ولو أدركوا أن المال لا تنقصه الصدقة لأجزلوا العطاء، قال تعالى: (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) (سبأ: ٣٩).

والفقير الذي يعمل هو خير من الذي يقعد ويسأل، فمن سأل وهو قادر على الكسب فحسبه هذا دناءة، ومن تعفف وهو بحاجة إلى المال فحسبه هذا رفعة، وليبان ذلك تأمل مديح الرب عز وجل لعباده الفقراء المتعففين، قال تعالى: (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) (البقرة: ٢٧٣).

^١ - متفق عليه عن ابن عباس، مشكاة المصابيح، (١٤٤٢/٣).

ولا ريب بأن هنالك فئة من أصحاب الأعذار لا تقدر على الكسب، إما لعاهة دائمة، أو مرض مزمن، أو لظرف ما من الظروف، كأن يكون الفقير معسراً، أو مسجوناً بسبب دين ونحوه، وهنا ينبغي مساعدة هذا الفقير، وكفالة عياله لأنهم أمانة، وينبغي أن يكون الاهتمام بهم قائماً في ضمير الأمة وواقعها. وإمساك المال عند الأزمات أمر خارج عن حدود الرجولة والشهامة، واحتكار القوت في الحروب والمجاعات جريمة بحق عامة الناس، والبخيل لا يدخل الجنة لما رواه أبو بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة خب^١، ولا بخيل، ولا منان)^٢.

فما أسوأ البخل في الإنسان! حيث حباه الله بالنعم الكثيرة، فاستنكف عن العطاء القليل، وما أقبحه إذا كان من مؤمن أنعم الله عليه بنعمة الإسلام التي بفضلها يتقي حر جهنم! ثم تراه يمسك إمساك الحريص الذي لا يثق بما عند الله تعالى، أليس جزاء هذا البخل أن يحرم من العطاء الإلهي بالجنة؟ قال تعالى: (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ) (محمد: ٣٨)، وقال أيضاً: (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنُ مِنَ الصَّالِحِينَ) (المنافقون: ١٠).

وللفقر آثاره الاجتماعية الكبيرة، فهو قد ينشئ الحقد والكرهية نحو الأغنياء، إذ جرت عادات الناس بأن تحتفل للغني وتبذد للفقير، فإذا أقيمت المجالس تصدر الأغنياء ولو أن بعضهم لا يفقه شيئاً، وإذا ألقى الغني نكتة ضحك الناس ولو كانت سخيفة، وإذا دخل مكاناً انتصب الناس له قياماً، وإن طلب كأس ماء ججاؤوه بالماء والمشروبات الغازية والقهوة معاً، يتواضعون له فيزداد غطرسة، ويتهافتون عليه فيزداد تكبراً، أما الفقير فلا يكاد يحفل به أحد، إذا عطس اشتمز البعض منه بدلاً من أن يشمتوه، ولا حظ له إذا فاق الشريا علماً وأدباً وورعاً ما لم تسمع في جيبه خشخشة الفلوس، أو يبدو من جيب قميصه دفتر الشيكات، قال الشاعر:^٣

فصاحهٌ حسانٍ وخطُّ ابن مُقلِّةٍ

وحكمةٌ لقمانٍ وزهدٌ ابن أدهم

إذا اجتمعت في المرء والمرء مفلسٌ

ونودي عليه لا يُباع بدرهم

^١ - الخب: الخداع الذي يفسد بين الناس.

^٢ - رواه الترمذي، مشكاة المصابيح، (١/٥٨٥).

^٣ - جواهر الأدب للهاشمي، ص (٧٢٤)، دار الكتب العلمية.

وهذا ما جعل بعض العلماء والشعراء يندبون حظوظهم، ويشتكون من سوء أحوالهم، قال أبو الطيب: ^١

ما مقامي بأرض نخلة إلا

كمقام المسيح بين اليهود

مفرشي صهوة الحصان ولكن

قميصي مسرودة من حديد

وقال عبد القاهر الجرجاني الإمام في النحو والبلاغة والأدب: ^٢

كبر على العلم يا خليلي

ومل إلى الجهل ميل هائم

وعش حماراً تعش سعيداً

فالحظ في طالع البهائم

وهذا الطغرائي يقول في لا ميته: ^٣

أهبت بالحظ لو ناديت مستمعاً

والحظ عني بالجهال في شغل

لعله إن بدا فضلي ونقصهم

لعينه نام عنهم أو تنبه لي

غالى بنفسي عرفاني بقيمتها

فصنتها عن رخيص القدر مبتدل

وقال أحمد الزبيدي اليميني: ^٤

قلت للفقير أين أنت مقيم

قال لي في عمائم الفقهاء

إن بيني وبينهم لإخاء

وعزير علي قطع الإخاء

وقال القاضي عبد الوهاب المالكي: ^٥

بغداد دار لأهل المال طيبة

^١ - مختارات البارودي، (١٥/٢).

^٢ - انظر: مفتاح السعادة لطاش كبري زادة، (١٨٧/١).

^٣ - مجلة العربي، العدد (٣١٨)، ص (١٣٣).

^٤ - انظر: صفحات من صبر العلماء، لأبي غدة، ص (١٥٥)، الطبعة الثالثة، دار القلم.

^٥ - انظر: صفحات من صبر العلماء، لأبي غدة، ص (٢٠٨)، الطبعة الثالثة، دار القلم.

وللمفالس دأر الضنك والضيق

وُّ

ظللْتُ حيرانَ أمشي في أزقيها

كأنني مصحفٌ في بيتِ زنديقٍ

وهذه الأبيات جميعاً تعكس تدمير أصحابها من سوء أحوالهم الاجتماعية.

ونختار من النثر في هذا الصدد كلمة جامعة مما وورد عن العباس رضي الله عنه، فقد كان يقول: (الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس، وهو عندهم أعذب من الماء، وأرفع من السماء، وأحلى من الشهد، وأزكى من الورد، خطؤه صواب، وسيئاته حسنات، وقوله مقبول، يرفع مجلسه ولا يمل حديثه. والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب، وأثقل من الرصاص، لا يسلم عليه إن قدم، ولا يستل عنه إن غاب، إن حضر ازدروه، وإن غاب شتموه، وإن غضب صفعوه، مصافحته تنقض الوضوء،، وقراءته تقطع الصلاة).¹

إن الله قد شرع نظاماً للحياة، فإذا ترك الناس نظامه فقد ظلموا أنفسهم وكانوا هم الظالمين، روى جابر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم).²

ومن الجور أن نحكم على بعض العلماء ممن اشتكوا من مفسدات الناس في زمن ما، أو ذموا حظهم بأنهم طلبوا الدنيا بعلومهم، وذلك لو أن هؤلاء أرادوا سلوك طريق الدنيا والمال فما الذي كان يمنعهم؟ ولكن الإنسان في النهاية جسد وروح، ولا بد للجسد من غذاء ودواء وملبس ومسكن.. فهو محتاج للمال من أجل هذا كله، فإذا لم يتوفر له الحد الأدنى من الكفاف وهو العالم المثقف الذي ينتمي لأعلى طبقة في المجتمع، ألا يشتكي من هذا الظلم؟ ومن جور الناس؟ لقد أخبر النبي عليه السلام بأن الحيتان في البحر والنمل في جحورها تستغفر لمعلم الناس الخير³، فكيف لا يسعفهم الناس بما يسد الرمق ويستر العورة في خير أمة أخرجت للناس؟

وخلاصة القول: إن الفقر والغنى من العوارض التي تعتري البشر في حياتهم، ووقود الفقير عن الكسب دون سبب وجيه تقصير ومناف للمروءة والكرامة، وكذلك امتناع الغني عن دفع الزكاة للفقراء عمل مناف للخلق والدين، وهو يودي بسلامة الحياة الاجتماعية، وعدم توفر فرص العمل والتكافؤ والمساواة والتكافل من أكبر الأمور السلبية التي تقوض ببيان المجتمع من قواعده.

¹ - المستطرف، للأبشيبي، (٢/٢٨)..

² - رواه مسلم، انظر: مشكاة المصابيح، (١/٥٨٤).

³ - انظر: مشكاة المصابيح، (١/٧٤). الحديث: (٢١٢)، و (٢١٣).

وإن إهدار قيمة الإنسان بسبب فقره، وتكريمه بسبب غناه، يعني أن المال هو أساس التفاضل بين الناس، وهذا انحدار فكري وخلقي للأمم والشعوب التي تقرر ذلك، فقيمة الإنسان ما يحسنه لا ما يملكه، وكرامة الإنسان لا يقررها مقدار جمعه لحطام الدنيا، فهذه انتكاسة للبشر جميعاً كنا نتمنى أن لا يقعوا فيها، فليس ثمة شيء ينبغي أن يتفاضل به الناس غير التقوى والعمل الصالح، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: ١٣).

الإسلام محرر الشعوب

لم يرحل الاستعمار عن بلاد العرب والمسلمين إلا وقد تكونت له تجربة ضخمة مع الشعوب التي استعمرها، وعرف نقاط الضعف ومواطن القوة لدى تلك الشعوب، وأدرك أن عدوه اللدود في العالم العربي هو الدين الحنيف، صحيح أن الدفاع عن الأوطان فطرة لدى كل الشعوب ولو لم يكن بعضها مسلماً، ولكن الدين يعطي ذلك الدفاع مسحة من قداسة، ولذلك نجد الذين أشعلوا حروب الاستقلال تحت أقدام الاستعمار في العالم العربي معظمهم من الشيوخ أو ممن تأثر بهم، فبعد الكرم الخطابي في المغرب، والأمير عبد القادر الجزائري في الجزائر وعمر المختار في ليبيا والمهدي في السودان وغيرهم كانوا ينطلقون في جهادهم ضد الاستعمار الغاشم من منطلق ديني وطني، فالدين هو الذي أمد هؤلاء بالطاقة اللازمة للمواجهة، ولولاه لاستسلموا للأمر الواقع، ولكان شعارهم: (قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ) (البقرة: من الآية ٢٤٩).

وقد أدرك المستعمرون قوة الدين الحنيف، فأعلنوا الحرب عليه في صور عدة، منها ما يشكك بالدين، وينتهي التشكيك بالإلحاد، ومنها ما يقلل من أهمية الدين، ومنها ما يعزل الدين عن الحياة، ويختصره بالأركان الخمسة، ويحصره في نطاق المسجد، ومنها ما يتهمه بالعنف والإرهاب، وقد استعمل الاستعمار أسلحته وخبراته وكل وسائل الترغيب والترهيب التي يملكها ليحتث دين الله من جذوره، ويقطع شوكته، ففي خطوة أولى تم إلغاء الخلافة العثمانية، وفي خطوة ثانية تم استعمار العالم العربي، وفي خطوة رابعة تم إشعال المنطقة بالحروب بين الجيران والإخوان في الدم والنسب، وفي خامسة تم تدمير ثقافة هذه الأمة والسعي إلى تغيير مناهجها التعليمية، وهنالك كثير من الخطوات القادمة لم تأت بعد، فهل نجح الاستعمار في استئصال شوكة الدين؟ هل نجح في جذب الشباب إلى اللهو والمخدرات والإباحية؟

لقد ذهل الاستعمار وهو يحشد طاقاته، ويجند أعوانه، ويسرع الخطا من أجل مسخ هذه الأمة واستعبادها، ذهل وهو يرى نبأً جديداً من شباب الإسلام، وقد استوى على سوقه، يعجب الزراع، ويغيب الكفار، هذا النبات يمتد في كل مكان من العالم، ويتخذ من المعرفة سلاحاً ومن الإيمان درعاً، وهو يسعى لتحرير أمته من برائن الذل والهوان، فهذه فتاة تتحدى السفور بحجابها، وتلك فتاة تعود إلى الله وهي تكفكف دموع التوبة، وذاك شاب يتضرع إلى الله في خلوته، وتلك أم تدفع ابنها للشهادة ذوداً عن المقدسات، وهكذا يستمر الخير في هذه الأمة إلى قيام الساعة، فهي أمة الخير والنصر، وأمة العلم والفكر، وأمة الصبر والشهداء، الشهداء الذين يعدون بالآلاف الآلاف منذ فجر الإسلام حتى الساعة، الشهداء الذين سقوا كل شبر من أرض هذه الأمة من دمائهم فسقاهاهم ربهم شراباً طهوراً في الجنة.

لقد كانت صدمة كبيرة للاستعمار، وهنا تثور تأثرته، ويعيد النظر في خططه كلها، ويقرر سحق هذه

الصحة المباركة، ويسخر كل إمكاناته لذلك، ويصرح بذلك سراً وعلناً، فعلى سبيل المثال قالت مجلة بديعوت أحرزوت في أحد مقالاتها: (نخشى أن تستغل الجماعات الإسلامية المعروفة بعداها لإسرائيل هذه الفرص لتحرك المشاعر الإسلامية ضدنا، وإذا فشلنا في إقناع أصدقائنا بتوجيه ضربة قاسية إليها في الوقت المناسب، فإن على إسرائيل أن تواجه حينذاك عدواً حقيقياً لا وهمياً، وهو عدو حرصنا على أن يبقى بعيداً عن المعركة، وستجد إسرائيل نفسها في وضع حرج إذا نجح المتعصبون المسلمون في تحويل المعركة إلى دعوة حرب جهادية، فيما مضى نجحنا بجهودنا وبجهود أصدقائنا في إبعاد الإسلام عن معركتنا مع العرب، ويجب أن يبقى الإسلام بعيداً عن المعركة، ولهذا فيجب أن لا نغفل لحظة واحدة عن تنفيذ خطتنا في منع يقظة الروح الإسلامية، بأي شكل وبأي أسلوب، ولو اقتضى ذلك الاستعانة بأصدقائنا لاستعمال العنف في إخماد أي بادرة ليقظة الروح الإسلامية).^١

وذكرت مجلة المستقبل أن مؤتمراً غربياً رسمياً^٢ عقد في بروكسل (لمناقشة المد الإسلامي في منطقة الشرق الأوسط، وإمكانات انعكاس هذا المد على الأوضاع القائمة حالياً في هذه المنطقة).^٣ (وشاركت فيه وفود رسمية تمثل دول السوق الأوروبية المشتركة، وضمت هذه الوفود خبراء بارزين في شؤون الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، وقد أحيط مضمون هذا المؤتمر بالتكتم ولم ينشر أي شيء مما جرى فيه أو حتى عن انعقاده).^٣

إن الإسلام دين عالمي، وهو يدعو إلى المحبة والتعاون بين الناس، ولا يشكل خطراً على أحد، وإنما هو دعوة لنهضة الإنسان وتحريره، إنه الشمس المضيئة لهذا العالم، فمن يقدر على الذهاب بضياها، وإنكار فضلها، وهي إن غابت في مكان أشرق في آخر، ولكن أعداءه يفترون عليه، ويؤلبون الحشود ضده، وتلك هي سياسة إسرائيل والاستعمار من ورائها، فهم يبحثون عن أصدقاء لهم لقمع انتفاضة شعب في وجه الاحتلال من أجل مصالحهم الشخصية فقط، وقد ينجح الاحتلال في استلاب فلسطين مدة أطول من المتوقع بسبب قوة نفوذه وكثرة المتحالفين معه، ولكن لا بد في يوم ما أن تعود فلسطين إلى أصحابها، طالما بقي هنالك مسلم واحد على وجه الأرض يقرأ قوله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الاسراء: ١).

وكما حرر الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين، فإن هنالك في ضمير الغيب من سيعيد تحرير فلسطين مرة أخرى، قال تعالى: (كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (المجادلة: ٢١).

^١ - انظر كتاب أمريكا كما رأيته، مختار خليل مسلاتي، ص (٣٥٦)، مكتبة المعلا، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، نقلا عن:

Newsweek, march 7, 1983, page 16-25.

^٢ - المستقبل، العدد ٥٦٤، السبت ١٢ ك ١٩٨٧م، ص (٢٠-١٢).

^٣ - المستقبل، العدد ٥٦٤، السبت ١٢ ك ١٩٨٧م، ص (٢٠-١٢).

مفاهيم يجب أن تصحح: ليس جميع الفنانين نجوماً

من المفارقات العجيبة أن تطلق الصحف والمجلات على أبطال التهريج والتمثيل والغناء والرقص اسم النجوم.

فالنجوم للإنسان هي رموز هداية إلى معرفة الاتجاهات قال تعالى: (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) (النحل: ١٦).

والنجوم تتميز بالرفعة والسمو، قال الشاعر:^١

أنتَ نجمٌ في رفعةٍ وضياءٍ

تحتليكَ العيونُ شرقاً وغرباً

والنجوم مصدر وحي وإلهام للشعراء، قال امرؤ القيس:^٢

فيالك من ليلٍ كأنَّ نجومه

بكلِّ مغارٍ الفتلي شُؤدَّتْ بيذبل

والنجوم كائنات تسبح لله تعالى، وربما شاطرت الإنسان همومه وأحزانه على وجه المجاز، قال محمود غنيم:^٣

مالي وللنجم يرعاني وأرعاهُ

أضحى كالنا يعافُ الغمضَ جفناهُ

والنجوم في مواقعها وانتظامها ضمن مجرات هائلة هي من أعظم آيات قدرة الحق عز وجل، وإزاء هذه العظمة يشعر الإنسان بضعفه وسقمه، قال تعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام: (فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ) (الصافات: ٨٨-٨٩).

تلك هي النجوم بالنسبة للإنسان، فهي كائنات صامتة، وصمتها أبلغ من كلامها، وهي من دلائل وجود الله تعالى، وبواسطتها يعرف الإنسان اتجاهات الطرق، ويختار السبيل الذي يريده.

ولكن ما العلاقة بين نجوم السماء والفنانين حتى تنقل إليهم هذه الكلمة، فيقال: النجم فلان والنجمة

فلانة؟

هل يُهتدى بالفنانين إلى طريق الفلاح؟ نتمنى لو كان الأمر كذلك، ولكن الواقع أن معظم الفنانين غارقون في أهوائهم وشهواتهم، فاشلون في أسرهم وحياتهم الشخصية، مسبيون لخراب البيوت في كثير من الأحيان بسبب سوء أفعالهم وتأثيرهم السلبي في الجمهور، والفنان الذي يقدم لك فيلماً جيداً سرعان ما يقدم لك أفلاماً سيئة

^١ - علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، ص (٦٦)، دار النهضة العربية.

^٢ - شرح القصائد العشر، للتبريزي، ص (٦٨).

^٣ - الأعمال الكاملة (صرخة في واد)، (٧٩/١)، دار الغد العربي، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

بعده، وبرامج الفن تشحن النفس الإنسانية بكتلة من المشاعر الهابطة التي تثير الغرائز الحيوانية، وكأنه لا فن إلا بالسفور والعري والرقص والمجون والكلمات الخليعة والموسيقى الصاخبة! ويقدم هذا كله تحت شعار التحديث والتطوير.

الفن في عالمنا العربي هو تهريج وتسلية، كل بلد تروج لهجتها العامية من خلال ممثليها الذين قتلوا الفصحى، وجعلوا مادة اللغة العربية موضع السخرية والاستنكار، والأفلام الاجتماعية مكررة، وهي لا تعالج مشكلات الواقع بشكل حقيقي وجذري، وفيها تظهر عبودية المال والتحايل لجمعه، والصراع يدور حول المال والمرأة، والفنانة التي تريد وعظ المجتمع تظهر كما لو كانت في حفل زفافها، والمرأة في الأفلام تتجسس على زوجها، والابن على أبيه، والضيف على مضيفه، وهذه الأفلام على رأي كثير من الممثلين هابطة لغة وفكرة وإخراجاً وتمثيلاً، فأبي فائدة ترجى من هؤلاء الفنانين الذين يسمون بالنجوم، وهل يجنى من الشوك العنب؟

إن أبطال الفن جزء من تخلف هذه الأمة، ومع هذا يعد التطاول عليهم كالتطاول على القديسين، وأما التطاول على أهل العقل والمنطق، والدين والفلاح^١، فلا شيء فيه في مجتمعات التخلف والضياع.

إنه لا علاقة بين رجال الفن القائل وبين النجوم في شيء، لأن الفن يعيش في وادي الغرائز والشيطان، وهو غير وادي الهداية والارتقاء بالإنسان من حيث أنه بناء رباني فيه العنصر الملائكي والروح التي تسبح بحمد الله تعالى، فلماذا سمي الفنانون نجوماً؟ أألشهرة؟ فما أكثر الأشياء الشهيرة من غير النجوم! أم لأنهم بلغوا أعلى المنازل في المال والفتنة والعلاقات العامة، فأطلق عليهم لفظ النجوم لما بينهم وبين عامة الناس من بعد؟

إن التلاعب بالأسماء يقلب الحقائق، فالخمر سماها النبي عليه السلام أم الخبائث^٢، وسماها الناس اليوم مشروبات روحية، والتسمية الحديثة تغري الناس بشرها، لأنها تطرب الروح كما توحى التسمية، فإن للاسم من مسماه نصيباً، وتسميتها بأمر الخبائث كفيل بزجر شارها، والأمر كذلك في تسمية الفنانين نجوماً، أليس هذا إغراء على اللحاق بهم وركوب مركبهم واتخاذهم قدوة في الحياة، لقد رأيت إعلاناً عن بيع صورهم في إحدى المجالات، كل صورة بدولارين، وعلى القميص مرسومة بمقدار عشرة دولارات.^٣

إننا لسنا ضد الفن الذي يهذب الأخلاق ويرقي الأحاسيس، ويهذب المشاعر، وينسجم مع روح الأمة وتطلعاتها، ومقوماتها وأخلاقها، بل نرى وجوب مؤازرة فن كهذا، ولكننا ضد الفن البذيء الهابط الذي ينسلخ من أي قيمة معتبرة، وينسل من مسؤولياته كما تسلس الشعرة من العجين.

^١ - شنت مجلة الوطن العربي في أحد أعدادها حملة على الشيخ علي الطنطاوي والشيخ محمد متولي الشعراوي رحمهما الله تعالى، ووصفتها بأتهما يستقطبان الشباب في العالم العربي، بينما تكيل المجلة الثناء للسوداني محمد محمود طه وجعلته شهيد الحرية والنضال، انظر: العدد ٥٤٤ - ٥٨٠، ص (٢٢).

^٢ - انظر: كنز العمال، (٣٤٩/٥).

^٣ - انظر مجلة طب نفسك، العدد ٧٣، تاريخ ١٥-١ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦م، ص (٢٩، و ٧٩)، ومعظم هؤلاء النجوم من الأجانب.

ونحن ندرك بأن كثيراً من الفنانين يملكون أحاسيس مرهفة، وقلوباً طيبة، فما أحسن الفن لو وظف لبناء الأخلاق بدلاً من هدمها، ولسنا ضد الفنانين كأشخاص، بل نتمنى لهم التوفيق والصلاح جميعاً، وندعو الله أن يثبت من تاب منهم، وأن يرزقهم الإخلاص في القول والعمل، ولكننا ضد لوثة فنية قلبت الخير شراً والشر خيراً والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، والأمين خائناً والخائن أميناً.

نحن ضد النجوم إذا لم تكن رجوماً للشياطين، وإذا لم يتوهج منها النور والعفاف في ظلمات الوثنية المعاصرة.^١

^١ - من علامات الساعة انقلاب الأمور، واختلال الموازين، وظهور الفساد، وغربة الإسلام، وإذا أردت تفاصيل ذلك انظر: كتز العمال، ن (١٤/١٨٩ وما بعدها).

هل ثمة بصمات تلمودية في النقد الأدبي؟

يسعى اليهود للسيطرة على العالم منذ القدم، فمنذ أيام موسى عليه السلام وإلى يومنا هذا وهم يشعلون العالم بالحروب وبمألونه بالفتن، وقد كان لهم دور كبير في تخريب الدولة الإسلامية، ابتداء من قتل عمر حيث كان لكعب الأحبار دور في قتله كما ذكر الأستاذ العقاد وغيره، حيث قال كعب الأحبار لعمر: (أجدك فيبي التوراة تقتل شهيداً. قال: وأنى لي بالشهادة وأنا في جزيرة العرب؟)^١ ومروراً بفتنة قتل عثمان وهي من تفصيل عبد الله بن سبأ وهو يهودي يمخني، وانتهاء بنسف عرش السلطان عبد الحميد الثاني الذي رفض المشروع الصهيوني، هذا على الصعيد السياسي أما على الصعيد الفكري فقد بثوا في الدين الحنيف كثيراً من العقائد الباطلة والأفكار المتطرفة، وشجعوا الفرقة والانقسام بين المسلمين.

ولليهود دور كبير في تشويه النصرانية، وقد زعموا قتل المسيح وافتروا على أمه مريم، وهم يسعون إلى القضاء على القوة الإسلامية وكل قوة تعارضهم في هذا العالم، وهم يتخذون جميع الوسائل لهذا الغرض، فشعارهم: (يجب أن يكون شعارنا: كل وسائل العنف والخديعة).^٢

والأدب أحد الوسائل التي تحقق أهدافهم، ولذلك جاء في خططهم: (وقد نشرنا في كل الدول الكبرى ذوات الزعامة أدباً مريضاً قذراً، يغثي النفوس، وسنستمر فترة قصيرة بعد الاعتراف بحكمنا على تشجيع سيطرة مثل هذا الأدب، كي يشير بوضوح إلى اختلافه عن التعاليم التي سنصدرها من موقفنا المحمود، وسيقوم علماءنا الذين ربوا لغرض قيادة الأميين، بإلقاء خطب، ورسم خطط، وتسويد مذكرات، متوسلين بذلك إلى أن تؤثر على عقول الرجال وتجذبها نحو تلك المعرفة وتلك الأفكار التي تلائمنا).^٣

وإذا كان اليهود قد استطاعوا تسويق المشروع الصهيوني، ألا يحاولون إفساد أدب العرب في مناهجه وتفسيره وغاياته؟

بلى، فنحن أمام جيش من الأدباء الجدد يرفض قوانين اللغة، ويستهن التراث، ويشتم العقيدة، ويسب السماء، ويتحلل من القيم والالتزامات، ويفتن بكل ما هو قادم من الغرب، معبوده المرأة، وغاياته الشهرة، وأهم خصائصه الثورة على الموروث الثقافي باسم الحداثة والتجديد.

ولعل التأثير اليهودي قد تجاوز الأدب إلى النظريات الأدبية، ويعود التأثير في النظريات الأدبية إلى عهود بعيدة، ولا ندري إذا كانت نظرية المحاكاة عند أرسطو (٣٨٤-٤١٢ ق. م) والتي غالباً ما يبدأ بها درس النقد الأدبي قد تأثرت بصورة أو بأخرى بما ورد في التلمود، فهي قريبة جداً مما في التلمود، يقول الدكتور محمد غنيمي

^١ - تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص (١٢٤) دار الفكر.

^٢ - بروتوكولات حكماء صهيون، ص (٣١).

^٣ - بروتوكولات حكماء صهيون، ص (١٠٤).

هلال في شرح نظرية المحاكاة: (يحصّر أرسطو المحاكاة في الفنون، سواء كانت فنوناً جميلة كالموسيقى والرسم والشعر، أم فنوناً عملية نفعية كفن البناء والنجارة مثلاً، على حين يعمم أفلاطون المحاكاة في كل الموجودات، ويفسر بها أنواع المعارف المختلفة، ومنها الشعر والفن كما رأينا، وبينما يعد أفلاطون محاكاة الفنون الجميلة للأشياء أقل مرتبة من العلم ومن الصناعة، لأن فيها بعداً عن إدراك جوهر الحقائق، ولأن جهدها ينحصر في نقل مظاهر وخيالاتها الحسية، إذا أرسطو يعد المحاكاة أعظم من الحقيقة ومن الواقع، والفنون عند أرسطو تحاكي الطبيعة، فتساعد على فهمها، فالفن شأنه شأن النظم التهديبية والتربوية يكمل ما لم تكمله الطبيعة، والفرن يتمم ما تعجز الطبيعة عن إتمامه، لأنه في محاكاته يكشف عما ينقصها، والفرن يجاري الطبيعة، ويهدف إلى أغراض، وله مناهج وفكرة يهدف من ورائها إلى إكمال ما في الطبيعة بوسائلها، فالطبيعة فيها الحصان لخدمة الإنسان، والفرن يصنع السرير أو البيت).^١

والطبيعة لم تصنع شيئاً، فالنسبة إليها مجازية، والصانع الحقيقي هو الله تعالى، وما نسب إلى أرسطو والذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد يقترب جداً مما ورد في التلمود، بل ويتفق معه في الفحوى، فالتلمود يرى أن صنع الإنسان أجمل من صنع الله تعالى! وهذا يتفق بشكل أو بآخر مع ما ينسب إلى أرسطو، يقول الأستاذ مختار خليل مسلاتي عن موقف التلمود من صنع الله وصنع الإنسان: (الإنسان في أعلى مراتبه يكون من وجهة النظر اليهودية شريكاً لله في المشروع الأخلاقي، والرابيون كانوا صرحاء في إعلانهم أن الله قد جعل الأشياء التي خلقها غير كاملة وذلك ليطورها الإنسان، والتلمود يشرح هذه المسألة، فعندما سأل تينوس روفوس الرابي أكيبا: من الذي يصنع أشياء أجمل: الله أم الإنسان؟ فأجاب الرابي أكيبا: الإنسان يصنع أشياء أجمل، ثم أراه سنابل من القمح وكعكاً، وقال: سنابل القمح هي من عمل الله، والكعك من صنع الإنسان، أليس الآن عمل الإنسان أكثر جمالاً؟ بعد ذلك أحضر له المواد الأولية التي يصنع منها خيوط الكتان وثوباً مصنوعاً، وقال له: ها أنت ترى مرة أخرى أن الإنسان يخلق أشياء أكثر جمالاً.

إثبات آخر يأتي من التلمود ليسير في نفس الاتجاه: أي شيء خلقه الله خلال ستة أيام الخلق يحتاج إلى مزيد من التطوير، فمثلاً: القمح يحتاج للطحن، والإنسان يحتاج للتطوير).^٢

وإذا قارنا ما ورد في التلمود مع ما ذكره أرسطو، نجد أنه منسجماً مع ما ذهب إليه أرسطو، ولا ينسجم مع التصور الإسلامي.

فأرسطو يرى عمل الفنان أفضل من عمل الطبيعة، فهو يكملها وكأنها ناقصة، ويمثلون لهذا بالحصان والسرير، وكذلك التلمود يرى بأن عمل الإنسان أجمل من عمل الله، ويمثل لهذا بالقمح والكعك، أو الخيط والثوب، أليس هذا يدل على ثمة تقارب والتقاء في فكرة المحاكاة بين التلمود وما ينسب إلى أرسطو؟ إنه أمر يستدعي الانتباه

^١ - النقد الأدبي، ص (٤٨)، دار نهضة مصر، القاهرة..

^٢ - أمريكا كما رأيتها، ص (٣٤٦-٣٤٧)، مكتبة المعلا، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

عند وضع المقرر في مادة النقد الأدبي، حيث ينبغي الحذر من طرح أفكار كهذه ما لم يعقب عليها بما يتوافق مع نظرية إسلامية المعرفة.

إن نظرية المحاكاة عند أرسطو تقول إن الطبيعة ناقصة، والفنان يكمل نقصها، وهو ما يتناقض مع التصور الإسلامي للخلق، فالخلق مخلوق على أحسن صورة، قال تعالى: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ) (السجدة: ٧)، والخلل والنقص منفي عن فعله عز وجل، قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَؤُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) (الملك: ٣)، وكل ما في السماوات والأرض هو من يد المبدع الخبير عز وجل: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (البقرة: ١١٧)، فالطبيعة في أجمل صورة، والإنسان في أحسن تقويم.

والمقارنة بين الكعك وسنابل القمح التي وردت في التلمود غير مستقيمة، فمن الذي علم الإنسان صنع الكعك وسخر له ما في السماوات والأرض؟ وعليه فكل إنجاز يحققه الإنسان يكون الفضل فيه لله تعالى: (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق: ٥)، فلا ثمة مقارنة بين عمل الإنسان وعمل الله، لأن الناس وأعمالهم من خلق الله تعالى، قال تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (الصفات: ٩٦)، ولو جازت المقارنة لقلنا هل الورد الصناعية مثل الورد الطبيعية التي تفوح عطراً ونضارة؟ قال تعالى: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (النحل: ١٧)؟ وهل الحصان المصنوع من خشب مثل الحصان الحقيقي؟ إن المرء ليعجب من القياس الفاسد الذي ورد في التلمود وعند أرسطو في آن واحد.

إن الأدب ليس إلا محاولة للتعبير عن انفعال الإنسان بالأشياء الجميلة من حوله، فهو يرسم صورة لعواطفه من خلال الكلمات، فهو تعبیر عن الواقع، فكلما اقترب الأديب من الواقع كلما حسن أدبه، فالواقع بما فيه من طبيعة وبشر وأحداث يحاول الفنان محاكاته، فكلما كانت المحاكاة قريبة من الصورة الحقيقية كان الفنان أكثر نجاحاً، ومن هنا تبرز جماهيرية الفنانين الذين يلتفت حولهم الناس عندما يعبرون عن آلامهم وآمالهم، فالنجاح هو بقدر احتواء الواقع وفهمه وتحليله والتعبير عنه، ولو أن متيماً أتيت به بكل قصائد الحب والعشق عبر التاريخ وقرأتها عليه لما شفت غليله كما لو رأى خيال محبوبه، يقول أبو العلاء المعري: ^١

لو زارنا طيفُ ذاتِ الخالِ أحياناً

ونحن في حفرِ الأحداثِ أحياناً

فعمل الفنان ليس إكمالاً لنقص الطبيعة، وليس هو أحسن من صنع الله تعالى، بل هو تعبیر جميل عن إحساسه الفطري تجاه الطبيعة والناس من حوله، يحاول الفنان من خلال التعبير أن يكشف عن العلاقات الخفية بين الأشياء، وأن يقترب من مركز الحقيقة، وأن يدرك حقائق الوجود ويصورها كما هي، لأنه مهما أراد أن يتحدث عن الجمال فالجمال يبقى أسمى مما يقال فيه، وليس القول إلا محاولة تصوره، وعمل الإنسان في كل حالاته هو

^١ - المثل السائر، لابن الأثير، تحقيق د. أحمد الحوفي و د. بدوي طبانة، (١/٣٤٧)، دار نهضة مصر، القاهرة.

أدنى من عمل الله عز وجل، قال تعالى: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) (لأنفال: من الآية ١٧).
وعليه فالواقع والطبيعة هما فوق عمل الفنان، والفنان الناجح هو الذي يرقى إلى مسئولية نبش هذا الواقع وتحليله،
ولعل هذا هو السبب في ضعف الفن العربي من مسرح ومسلسلات لا تعكس بالضرورة هموم المواطن العربي
والمشكلات التي تواجهه، إنه في معظمه فن بلا رسالة، فإذا جاء فنان كبير مثل مصطفى العقاد وحاول أن
يوظف الفن لخدمة فكرة سرعان ما يجد النجاح لأن سوق الفن عندنا أغلبيه غثاء.

بكاء الخنساء بين الجاهلية والإسلام

الخنساء امرأة عظيمة بكل المقاييس، عظيمة بعاطفتها الإنسانية الحانية التي تتدفق كشلال لا يتوقف، وعظيمة بشعرها، يشهد لذلك ما ورد في كتاب الأغاني من أنه كان يضرب للنابغة قبة من آدم حمراء، بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، وأول من أنشده الأعشى، ثم حسان بن ثابت، ثم أنشدته الخنساء:^١

وإن صخرًا لتأتم الهداءُ بهِ

كأنه علمٌ في رأسه نازٌ

فقال النابغة: لولا أن أبا بصير - يعني الأعشى - أنشدني أنفا لقلت إنك أشعر الجن والإنس!

وهي عظيمة أيضا بأمومتها وصبرها، وما كان منها من صبر واحتساب يوم فقدت أولادها الأربعة في معركة القادسية.

وقد ذكر ابن قتيبة رحمه الله خبراً موجزاً بيد أن معناه كبير، وهو يبين جانباً من عظمة هذه المرأة، قال: (قالت الخنساء: كنت أبكي لصخر من القتل، فأنا أبكي له اليوم من النار).^٢

كلمات قليلة ولكنها عميقة المغزى، وكم في تراثنا من مثل هذه الأقوال الرائعة والحكم الخالدة التي تحتاج إلى مزيد من التحليل لكي تفقه كنهها الأجيال.

الخنساء تلك الشاعرة الرقيقة التي قالت أعذب شعرها في رثاء أخويها صخر ومعاوية، فما كاد دمعها يجف حتى راحت تذرعه من جديد بكاء على أخيها من النار... بكاء دائم لا ينقطع، ولكن سبب البكاء تغير، كان في البداية حزناً على عزيز فقدته في الحرب، وهو فيما بعد بكاء على مصير هذا الفقيد خشية أن يكون من أهل النار.

هل بكت لأن قلبها يفيض حباً وحناناً؟ أم لأن صخرًا كان بمواصفات مثالية لا يمكن أن توجد في غيره بنظرها، أم لأن شحنة الرحم تجعل المرء يبكي ولو لم يرد البكاء وهي أكثر تأثيراً في النساء منها في الرجال؟ وما العمل إذا كان الإنسان لا يملك غير دموعه، أليس عليه أن يبكي حتى لا يموت هماً وكمداً، أليس في البكاء تصبراً، وعنه تقول الخنساء:^٣

فلولا كثرة الباكينِ َ حولي
على إخوانهم لقتلتُ نفسي

وبصرف النظر عما يقوله علم النفس عن البكاء وبواعثه، نقول إن القلب المكلوم قد لا يهدأ بهذا البكاء، بل

^١ - علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، ص (٧٣)، دار النهضة العربية.

^٢ - عيون الأخبار، (٦/٢٩٨).

^٣ - زهر الآداب، للحصري، تحقيقي د. زكي مبارك، (٤/٩٩٩)، دار الجيل بيروت، الطبعة الرابعة.

ربما يزداد تهيجاً مع كل قطرة، ويصبح البكاء عند ذلك صبغة خاصة تصبغ حياة صاحبه، فلا هو قادر على التخلص منها، وإذا استمر وهن جسمه وضعف بصره، وربما اعتراه ما اعترى يعقوب عليه السلام من كف البصر، قال تعالى: (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْمَى عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِيبَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) (يوسف: ٨٤)، ومع الحزن تصبغ الحياة كئيبة، وظلالها ثقيلة، وأنسها وحشة، ولا يجد المحزون مؤناً لنفسه غير دمعته، التي ربما توصله إلى التلف ما لم تتداركه عناية الله تعالى، انظر إلى يعقوب وهو يكثّر من ذكر ابنه يوسف حتى قال له أبناؤه: (قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ) (يوسف: ٨٥).

لقد بكت الخنساء في الجاهلية، ثم تواصل بكائها في الإسلام، فهي الآن تؤمن بالبعث والنشور، وأشد ما تخشاه أن يكون صخر من أهل النار، ولكم هو مشهد مفرع أن يرى الإنسان أخاه وحببيه يقذف في النار، حيث الخسارة الأبدية، وليس ثمة لقاء بينهما فيما بعد، وماذا سينفع أخاه كل الرثاء الذي قالته فيه إذا سلك سبيله إلى النار؟ على أن للعلماء أقوالاً في شأن من مات قبل بعثة الرسول عليه السلام ليس الآن موضع سردها، قال تعالى: (مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) (الإسراء: ١٥).

إن في كلام الخنساء قاعدة تربوية عظيمة، فكثير من الناس لا يهتمهم من الحبيب أيا كان إلا قربه، والمصالح المشتركة معه، ولا سيما في عصرنا حيث سرت المادة حتى في الفكر والشعور والأدب، فإذا مات حزنوا قليلاً ثم نسوه، ولا أحد يفكر في مصيره في الآخرة، أو يحاول أن يعمل عملاً صالحاً ينتفع به ذاك الفقيد، أما الخنساء فهي تبكي فقيداً وتفكر في مصيره في الآخرة، فيا لقلبها الكبير ما أعظمه!.. رحم الله الخنساء، فهي طويلة البكاء في الجاهلية والإسلام، من الله عليها بنعمة الهداية، وتغلغل الإيمان في أعماقها، فلما رزئت بأولادها لم تكن لتذرف دمعاً، وإن كان المصاب هنا أجل وأعظم، لأنها كانت تأمل بأن تلقاهم في الجنة مرة أخرى، فقالت: (الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من الله أن يجمعني بهم في مستقر رحمته)، وهنا تزول الوحشة عن فقد الأحبة، لأنها تأمل أن تلقى أولادها في الجنة.

ما أعظم العقيدة التي تخفف المصاب، وتجعل الإنسان أقدر على تحمل المواقف الصعبة عند النائبات!.

نحو القمر !

القمر الذي هو مثار إلهام الشعراء وأشواق العشاق، وعيون الباحثين عن الهدوء والجمال، أصبح محطة للرحلات الفضائية لدى الأمم المتقدمة، التي صارت رحلاتها ميسورة إليه، وربما وضعت فيه أو حوله أجهزة تفيدها على سطح الأرض، وصار الذهاب إلى القمر أمراً ميسراً بعد أن كان ضرباً من المستحيل.

الأمم تتسامى، تصعد نحو المجد، تبني نفسها، تأخذ مكانها في درب التقدم الإنساني المجيد، إلا نحن أمة العرب والمسلمين، فنحن نرقب صعودهم، ونسمع أخبارهم، وبدلاً من أن نسابقهم نجد بعضنا من يكذب صعودهم نحو القمر حتى الساعة، وربما فسر آيات الهدى وفق هواه ليثبت رأيه الخاطيء، فيلصق بدين الله ما ليس منه، فقد جعل الله لكل شيء سبباً، والصعود في السماء له أسباب علمية إذا اتخذت أمكن ذلك.

صعدوا نحو القمر، ونحن ملتصقون بالأرض، وكأننا قد أقسمنا أن لا نغادرها، نتشاحن ونتخاصم، ويغير بعضنا على بعض، ويسلب بعضنا بعضاً.

هم يتحدثون عن مزيد من السيطرة على هذا العالم واستغلال ثرواته، بعد أن درسوا علوم الذرة والفلك والميكانيك والرياضيات والكيمياء والطب والهندسة وغيرها، فأتقنوها وبرعوا بها، بينما نحن لا زلنا ندرس ألف ليلة وليلة، ونوادير جحا، أو نسترخي لمتابعة أفلام الفضائيات، أو نتخاصم حول السبحة والمولد وحكم الذهب المخلق للنساء، وكشف وجه المرأة، والتوسل، وقد نؤلف كتباً، بعضها لا يغني ولا يضمن من جوع، بل يزيد الشقاق والتباعد بين أبناء الأمة الواحدة، وعامة العرب والمسلمين يعصرهم الفقر، ويمزقهم الخوف، ويعيشون حياة ربما كان الموت أيسر عناء منها.

صعدوا إلى القمر، فهل فكرت أمة الإسلام أن تفعل مثلهم، بالطبع كلا، فالجائع لا يبحث عن غير لقمة، والعريان لا يبحث إلا عن ما يستر العورة، والنظام السياسي مشغول في حفظ أمنه ودرء خطر العدوان عليه، وأهل الدين مشغولون في أورادهم، فإذا فكر عبقرى من أبناء العرب أن يصعد نحو الفضاء لم يكن له سبيل إلا بالسفر إلى الغرب ليحقق ما يريد، وهنالك تمتد إليه يد من المساعدات، وربما استبقوه لكي لا ينقل علمه إلى وطنه، فيحافظون عليه حفاظهم على التحف النادرة والتراث القديم.

لقد صعدوا إلى القمر، ونحن لم نصعد إلى رأس جبل هيمالايا، ولماذا نصعد؟ فالرزق ينزل من السماء ويأتينا إلى الأرض، وفلسفتنا في الحياة تقول: لا تفكر بما لا يعينك، عليك بنفسك، دعك من القمر والنجوم والكواكب، فهذه أشياء لا طائل من ورائها!

وفي ظل هذا الجدل الطويل، والفلسفات الساذجة التي لا ترى الحياة إلا لقمة ونوماً هنيئاً، صرنا نجد أنفسنا غرباء في هذا العالم، إذا نظرنا إلى القمر نجد حوله أحلام الأمم الكبرى من الشرق والغرب، تلك الأمم التي تتوق لغزو الفضاء وتحدث عن الحرب الكونية، وتتنظر إلينا بشيء من التهكم والاستكبار، فأحفاد الرشيد

مازالوا يتصارعون على الخلافة والتركة، وقد قرروا الاحتكام إلى أحفاد نقفور، الذي سماه مولانا الرشيد: (كلب الروم) ليحكموا بينهم بالعدل!

خواطر في ذكرى المولد

أيها الإنسان
قم وعانق النجوم
وتبسم مبتهجاً
قم فالكون يغني ويشدو
فلماذا تبقى حزيناً بائساً
قم فكل ذرة في الوجود نشوى تغمرها فرحة عامرة
والنور ساطع في سماء العالم
ولم يعد ثمة لغز أو مجهول يحير العقل والشعور
فعندما تعرف ربك
ستفهم أكثر
وتدرك أكثر
قم وانظر إلى أطباق النور بأيدي الملائكة
وانظر إلى الشمس تبدو كعروس من ذهب
والقمر كسبائك من فضة
انظر عرس الحياة
تمتع بجمال الطبيعة
اغسل أحزانك كلها
فالظلام قد رحل
وناب الظلم قد كسر
والعالم يسير نحو السلام
كما سارت سفينة نوح من قبل
العالم اليوم يخلق من جديد
فالיום قد ولد محمد
*
هل تعرف من هو محمد؟
هو آخر رجل من الأرض يصفحه أهل السماء

ماء الغمام ينبع من بين أصابعه
كان رمز الطهارة في هذا العالم
بحر الأدب والأخلاق
فارس الكلمة والميدان
وفي المحراب ألين من الحرير بين يدي مولاه
سيف الله فوق الأرض
بقية الأمل في هذا العالم
نبع الحب والإخلاص
مفجر طاقات الإنسان
معلم الأجيال وصانع الحضارة
محرم العبيد
وعصمة الأرامل
عليه سلام الله إلى الأبد
*

لقد أصبح الكون بكل ما فيه بجرأً من الجمال
جدد نفسك هذا اليوم
هيا إلى الجنات
يا من يحطب أحسن الحور
ويفكر بقصر في الجنة
ويبحث عن ماء الكوثر من حوض محمد
لا تغفل عن نوم الليل
لا تبخل يوم الواجب
لا تصرخ من ضربة ظالم
اصبر
فرحلة الخلود لا يفوز بها إلا الصابرون
كيف تنام طول الليل

والموعد مع رحمة ربك وقت السحر
انفض

اغسل نفسك من كل درن

شاهد جمال محبوبك

ابحث عنه وقت التجلي

آه من نسوة قطعن أيديهن لرؤية يوسف

وأنت لم تقطع أوهامك لرؤية من صوّر يوسف

لماذا لا تهيم وتزعم أنك ولهان؟

*

وأنت أيتها البشرية التي سقاها محمد

ما هذه الحروب القذرة في كل بقعة؟

أمن أجل غنائم خسيصة يراق دم الإنسان

ولماذا يأكل الإنسان لحم أخيه الإنسان؟

ولماذا يملأ الشر الآفاق

لماذا لا نزحف نحو الشاطئ

أنسيت أن محمداً هو الذي أنقذك من حبل الإعدام

وأن كتاب محمد سقاك بلسم الحب والأمل

فلماذا الضياع لماذا؟

ماذا تعييون من السراج الوهاج؟

افتحوا عيونكم يذهب الظلام

فالسراج هو السراج

باق إلى الأبد

انتبهوا

قبل أن يحل الفناء

فوق هذا العالم

*

وأنت يا أمة محمد

كفى نشيداً بمدح محمد

فقد زرع العالم غيرك

ما لي أرى خنجرك من قش

وكل الوحوش تنهش لحملك

حتى الجرذان

ما هذا الذعر والقهر؟

وأين حمزة والزبير؟

وأين الحسين سيد الشهداء؟

ما لي أراك

بلا حرية

يعبث فيك الحولان والعرجان والعميان والبرصان على

حد تعبیر الجاحظ أبي عثمان

وآمالك من سراب

وواقعك من عفن

هل صرت ركماً لا يتحرك

إنسانك آلة

وآفاقك طراً مسدودة

وكتاب محمد خلف الأسوار

ما هذا؟

عودي عودي قبل الغروب

فاليوم الماضي ليس يعود

ومفاتيح بيت المقدس تنتظر من جديد

ستمحك السماء إياها

إذا نظرت إلى السماء.

* * *

حضارتنا والترف الفكري.. حديث ذو شجون

هل كان سلفنا يعيشون في عصورهم الزاهية ما يمكن أن نسميه بالترف الفكري؟ وهل كان هذا الترف مضرًا بالعلوم أم نافعا؟ وما قيمة ما قدمه أجدادنا للحضارة الإنسانية؟ أسئلة كثيرة ما يطرحها الناس، وينبغي الإجابة عليها لسببين:

الأول: لدفع شبهات من يشككون في ماضي الأمة، ويقولون إن علومنا كانت ترفاً فكرياً، حيث أهملنا العلوم التي تخدم الحياة، وهذا القول لا يستقيم مع البحث، ولا تقوم له الحجة، فقد كانت حضارتنا على العموم شاملة لميادين الحياة كلها، سبقة في شتى المجالات، مبدعة في مختلف الميادين.

والثاني: لدفع الغلو والتعصب نحو الماضي، فهناك من يعتبر كل ما هو قديم هو محترم وعظيم، وقد يرفعه إلى حد القداسة، ولا يجوز المساس بالقدماء أبداً، وهذه نظرة مثالية غالبة في الأمور، ففي كل عصر يوجد الخير والشر معاً، والإيجابيات والسلبيات، فعندما نمس جانباً معيناً منه، فليس معنى ذلك أننا أسقطنا كل قيمة معتبرة لذلك العصر.

ولنأخذ العصر العباسي مثلاً، وهو العصر الذهبي للحضارة الإسلامية، فإننا نجد فيه من العلماء والفقهاء والمصلحين والزهاد ما لا يقع تحت الحصر، وبالمقابل نجد فيه من الزنادقة والمجان وأرباب الأهواء والملل والنحل ما لا يحصر أيضاً، فقد كان ذلك العصر غنياً بكل اتجاهاته، وإذا كان الخير ظاهراً في القرون الأولى، فقد كان الشر ضامراً، واستمر الخير في الانحسار، والشر في النمو والظهور حتى انقلبت الصورة، وصار الإسلام غريباً كحاله يوم بدأ، والشر يملأ الآفاق كالجاهلية الأولى.

إذاً فكل دولة تحمل في ميلادها بذور نهايتها، كما يحمل الطفل منذ الولادة جراثيم نهايته، فكلما مر يوم اقترب من الخاتمة ودنا منه الجل، وهذه سنة من سنن الله تعالى، بأن لا تبقى أية قوة تسيطر على هذا العالم باستمرار، وإلا لما عاد هناك من فرصة للاختيار، ولا من ضرورة للابتلاء والبقاء، فإذا كانت القوة المسيطرة خيرة فسيعم في العالم الخير، ولو كانت شريرة فسيتملى العالم بالشر، وفي كلا الحالتين لن يكون هنالك صراع بين قوة الخيرة والشر، ولن تكون هناك فرصة للصراع والحوار، وهذا ما يتنافى مع أصل الوجود للبشر، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد ما ذهبنا إليه، قال تعالى يذكر اختلاف الناس في قضية الإيمان: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (التغابن: ٢)، وقال يبين أن الخير والشر ينال المؤمن والكافر على حد سواء: (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) (آل عمران: ١٤٠)، وقال مبيناً حقيقة الحياة وأنها ابتلاء للجميع: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (الانبيا: ٣٥) وقال يذكر ما يقع بين الناس من صراع وحروب: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (الأنعام: ٦٥) وقال مبيناً أن التعددية هي غاية الخلق ليملاً الجنة والنار معاً: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا

يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (هود: ١١٨ - ١١٩).

إذا فسنة الحياة أن يبقى الاختلاف قائماً والتعاقب مستمراً، وإذا كانت أمتنا اليوم في القاع، فإن هذا يبشر بالصعود والعودة إلى القمة، فليست الحياة إلا ناعورة ترفع أقواماً وتخفض آخرين، في عملية دائبة لا تتوقف إلى يوم الدين، قال الرصافي:^١

ألا قل لمن جاروا علينا بحكمهم رويداً فقد قارفتُم كلَّ مأثم
فلا تنكروا شمس الحقيقة إثمها لأظهر من هذا الحديث المرجم
علونا وكنتم سافلين فلم نكن لنبيدي إليكم جفوة المتهمكم
ولم نترك الحسنى أوان جدالكُم وتلك لعمري شيمه المتحلّم
فلما استدار الدهر بالأمر نحوكم كشفتُم لنا عن منظر متجهم
فلا تأمنوا الأيام إن صروفها كما هي إذ أودت بعادٍ وجرهم

ولكن لكل شيء سبب، ومعرفة أسباب الهبوط ومقاومتها من أهم أسباب الارتفاع، أو كما يقول أهل القلوب: التخلية قبل التحلية، لذا علينا أن نقرأ التاريخ، وأن نعرف أسباب تأخرنا، والشغرات التي أصابت أمتنا، ونحاول علاجها والتخلص منها، فهذا أول خطوة في طريق الارتفاع.

نعود إلى موضوعنا فنقول: إن أجدادنا لم يعيشوا ترفاً فكرياً، وإنما هو ثراء علمي وراقي عقلي وطموح فكري، وهذه النهضة التي أقاموها والتي أسس عليها الغرب حضارته هي في جذورها منبثقة من الدين الحنيف.

والطموح الفكري غير الترف الفكري، لقد فكروا في كل اتجاه، ودرسوا شتى العلوم، وحاولوا تفسير كل الظواهر الكونية والإنسانية، وكان محور اهتمامهم يدور حول الرقي بالعقل الإنساني وضرورة تزويده بشتى أنواع المعرفة والعلوم، ولما كان رقي العقل لا يتم إلا بحفظ الدين وتقويم الدنيا، فقد بذلوا كل ما بوسعهم في حفظ علوم الدين وتبويبها وترتيبها وشرحها وفهرستها، ووضعوا المؤلفات القيمة في هذا الجانب، كما قدموا خلاصة ما استفادوه من الآخرين ممتزجاً بما توصلوا إليه في بحثهم وتجاربهم في جانب علوم الدنيا، وطوروا هذه المعرفة لتخدم الإنسان حيثما كان، فكتبوا في الطب والكيمياء والفلك والحساب وغير ذلك، ووصل الطموح عند بعضهم إلى محاولة الطيران كما فعل عباس بن فرناس والجوهري صاحب الصحاح، ورسم الإدريسي خريطة العالم، وقاموا في أيام المأمون بقياس قطر الأرض، وتحدثوا عن المخلوقات في الكواكب الأخرى.

فالحضارة الإسلامية حضارة معطاء، ولكنها لم تصل إلى حد الترف العلمي إلا في مسائل بعض العلوم، ونحن نسميه اكتمالاً أو إشباعاً لمسائل تلك العلوم وليس ترفاً، ولم يكن هذا الإشباع ليصرفها عن اهتمامها بالإنسان ومشكلاته، كما يدعي بعض المغرضين حين يقولون: لقد كان العلم مقصوراً على طبقة مترفة رديفة للحكام، وكان يدور

^١ - الأعمال الكاملة، (١٨٦/١)، دار العودة، بيروت، ٢٠٠٠م.

في موضوعات خيالية جدلية لا صلة لها بواقع الإنسان العادي ومعاناته اليومية.

وليس هذا الادعاء إلا فرية كبيرة بحق تراثنا وعلمائنا وحضارتنا، وإذا كان هنالك إشباع في بعض مسائل العلم التي قتلت بحثاً فإنما حصل بعد أن نضجت تلك العلوم عبر قرون طويلة، وبفضل جهود علماء متمرسين، وهو إشباع يثري البحث والمنهج والحياة، وليس مما يضر في شيء على أية حال من الأحوال.

وإذا كان عصرنا لا يُعنى بمثل تلك المباحث التي يسميها بعضهم ترفاً علمياً، فهذا أمر طبيعي، فلكل عصر اهتماماته وظروفه، والمعاناة الاقتصادية للإنسان في العصر الحديث أمام زحمة المتطلبات وقلة الموارد وعظم المسؤوليات، جعلته لا يفكر إلا بلقمة عيشه، أو بالمطالب المادية الثلاثة التي جعلها ماركس مطالب الإنسان، وهي: (الغذاء والمسكن والجنس)، فلم تعد قامته تساعد له كي يتطلع إلى ما بحث به أولئك العمالقة الأفاذا، وذلك بعد أن قزمت الحضارة مطالبه، وجعلته لا يهتم إلا بالمحسوس والعاجل، بعيداً عن التفكير العميق بالبعيد والمجرد، والخطير والآجل، وبما وراء المحسوس والطبيعة.

إن تاريخنا العلمي تاريخ ناصع، وحضارتنا على العموم حضارة ناصعة، ولكي نكون موضوعيين نقول: لا تخلو حضارتنا من نقاط سوداء، كما أن حضارات الأمم الأخرى المعاصرة لأمتنا في العصور الوسطى كانت سوداء، وبخاصة في أوروبا التي كانت تعيش في عصور الظلمات، وهي لا تخلو من بعض النقاط البيضاء.

ولا بد من الحذر في الموازنة بين الحضارات، إذ نجد من يوازن حضارة الإسلام قديماً بالحضارة الأوروبية المعاصرة، ثم يقولون هذا ما قدمت أوروبا من العلوم والصناعات فماذا قدمنا للعالم؟ وهذه الموازنة خاطئة بالأساس، فإنما يوازن بين الحضارات في عصر واحد وليس في عصور مختلفة، ولو صحت الموازنة في عصور مختلفة، وأخذنا المحصلة الكلية لجميع أوجه النشاط الاجتماعي والإنساني، والمادي والروحي، والسليبي والإيجابي عند أية أمة، فإن أمتنا بالمحصلة النهائية ستحصل على أعلى خط بياني يمثل نقطة الذروة في حياة البشرية، فنحن الذين قدمنا الأمن والإيمان لهذا العالم، ونحن الذين حررنا الإنسان وأزلنا سلطة جلاديه في العصور الوسطى، ونحن الذين نشرنا ثقافة الحب والسلام في هذا العالم، ونحن الذين علمنا الغرب على أيدينا، وبهذا نستحق أن نكون خير أمة كما قال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) (آل عمران: ١١٠).

وإذا كنا نعتر بتاريخنا وحضارتنا وما قدمناه للعالم فليس هذا يعني بأننا ملائكة معصومون، وليس لدينا أخطاء، لقد كانت هنالك أخطاء كثيرة ابتدأت من الفتن في عهد الصحابة، وبتحول الخلافة إلى ملك وراثي استبدادي في عهد بني أمية، وبإيداء آل بيت النبي عليه السلام في عهود مختلفة، ووجود مظالم كثيرة في بعض العهود، ولولا تلك السليبيات التي ازدادت عبر التاريخ، لما توسع حرق السفينة وآل وضعنا الحضاري إلى هذا البؤس والانكسار الذي نعيشه.

وعندما نتكلم عن أي عصر من عصور تاريخنا يجب أن لا نضمه حقه، فنذكر محاسنه ومساوئه، ويجب أن نعي بأن مرحلة التردّي القصوى كانت في آخر قرنين، حيث فشا الجهل ولم يعد هنالك حركة علمية نشطة أصلاً، فضلاً عن وجود التجديد والإبداع في الفكر والبحث العلمي، وإن سقوط الدولة العثمانية كان يشبه سقوط بغداد في عهد هولاكو

أو أشد، حيث انفرط عقد الوحدة الإسلامية، ومزقتنا أنياب الاستعمار.

إن السلبيات المتراكمة التي أودت بحضارتنا تعود لنوعين:

الأول: ويتعلق بالدين، حيث صار الدين وعاء فضفاضاً لأهل البدع والخرافات، ومناسبات وطقوساً شكلية، وتم استبعاده بشكل عملي من قضايا الحكم والسياسة، وتبع ذلك تردي الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وظهرت المفاصد الأخلاقية في الأمة.

الثاني: ويتعلق بالدنيا وشؤونها، حيث كان هنالك إهمال لعلوم الدنيا، أو للعلوم الكونية في العصر الأخير، فقد أنسانا فتح القسطنطينية كل واجب، فنمنا بعده يوماً طويلاً بعيون قريرة، وعم الفساد السياسي والإداري، ولم نستيقظ إلا على قرع نعال نابليون وهو يغزو مصر سنة ١٧٩٨م، وجاء محمد علي باشا وعمل صحوة لم تلبث أن ذهبت على أيدي أبنائه وأحفاده، ونامت الأمة، لتصحو بعد ذلك وقد اجتثت خلافتهم التي بكأها شوقي قائلاً:^١

يا أختِ أندلسِ عليكِ سلامٌ هوتِ الخلافةُ عنكِ والإسلامُ

نزلَ الهلالُ عن السماءِ فليتها طويتْ وعمَّ العالمينَ ظلامُ

وهذه السلبيات كالأضرار الكامنة، تظهر وتختفي، وكان ظهورها في بداية العصر الأموي بطيئاً، وازداد بعد هولاكو، واستمر في أيام المماليك والعثمانيين، وانكشف واضحاً للعيان مثيراً للأحزان في العصر الحديث.

إن ثمة مهمة مقدسة تنتظرنا وهي النهوض بهذه الأمة، وهذا لا يتم إلا من خلال أمرين:

الأول: تفعيل القيم الروحية التي كان عليها سلفنا الصالح.

والثاني: أخذ العلوم الغربية في مجالات الحياة المختلفة وبخاصة في الصناعة والزراعة والعمارة ونحو ذلك، فيجب أن نبدأ

حيث انتهى الآخرون، ولا يمكن الاستغناء عن العلوم المعاصرة بأية حال من الأحوال.

لقد قدم أجدادنا كل ما ينفع لهذا العالم، وعلينا أن نسير على نفس المنوال، فما زال العالم ينتظر منا الكثير من

المشاركة والعطاء.

من خصائص البلد الأمين

مكة أحب بقاع الأرض إلى الله تعالى، وإلى رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، وقد أدرك العرب حرمتها في الجاهلية فعظموها، ولم يكونوا يأخذون بثأرهم في رحابها، وجاء الإسلام فعزز مكائنتها، وأزال ما فيها من مظاهر الشرك وبقايا الوثنية، وجعلها قبلة التوحيد لله عز وجل، وبدأ الناس حول العالم يتوجهون إليها خمس مرات في اليوم لأداء صلواتهم، ففيها كعبتهم ومناسكهم، ومقام أبيهم إبراهيم، ومولد نبيهم محمد، وإليها حجهم من كل فج عميق.

وقد اختار الله لمكة موقعاً مميزاً، فجعلها في قلب الجزيرة، بعيدة عن جيوش الروم والفرس، حتى تبقى آمنة من الغزو والسلب، فلما أراد طاغية من الحبشة أن يهدم كعبتها، ولم يكن لأهلها طاقة في دفعه تدخلت السماء للذود عنها، وقد تعهد الله بحمايتها بنفسه، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) (الحج: ٢٥).

وقد سماها الله بأسماء كثيرة، فهي مكة وبكة والبلد الحرام والبلد الأمين وأم القرى، ولكل من هذه الأسماء دلالة، والواجب على زائرها أن يحترم قدسيته ولا يفرط بأمنها، ولا يعضد شجرها، ولا يقتل صيدها، فكل ما في الحرم فهو آمن.

ولموقعها الذي اختاره الله تعالى خصائص متعددة، منها ما يلي:

أولاً: وجودها بين الجبال جعلها في مأمن من الزلازل ونحوها، لأن الجبال أوتاد الأرض، وجعلها مهيبة تتناسب وجلال النبوة والوحي، وحماها من الرمال الجارفة التي قد تطمرها في ما لو كانت مكشوفة في الصحراء، فتمحى آثارها، ولا يعرف الناس سبيلاً إليها.

ثانياً: إن مكة قريبة من البحر، فلا تبعد عن جدة أكثر من ثمانين كيلو متراً، وهذا يسهل الوصول إليها عبر البر والبحر، قال تعالى: (أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (المائدة: ٩٦). ولو كانت مكة في أي موقع آخر بعيد عن البحر لتعذر الوصول إليها إلا عن طريق الإبل، وهذا فيه مشقة على الناس وتعريضهم للخطر نظراً لندرة المياه في الجزيرة، وعدم توفر أسباب الأمن فيها قبل الإسلام.

ثالثاً: جو مكة حار في نصف العام ومعتدل في نصفه الآخر، وهذا الجو يتناسب مع ملابس الإحرام، ولو كانت بلداً بارداً لتعذر ذلك.

رابعاً: جعلها الله في واد غير ذي زرع، حتى يقصدها الحاج مخلصاً لله تعالى، ولو كانت ذات حدائق لاختلط القصد عند بعضهم بالسياحة، وقد أراد الله من الحاج أن يتجرد له، فأمره بخلع ملابسه ولبس الإحرام، وحرمة من أطيب اللذات، وهما: الطيب والنساء، فكيف يريد متجرداً له، ثم يقيم له الحدائق الغناء، والأنهار العذبة، والطبيعة الفاتنة التي ستلهيه عن ذكر الله، ولذلك ساعد الله عباده بأن جعلها بواد غير ذي زرع لكي لا يشغل أنظارهم وأفئدتهم سحر الطبيعة الغناء، فيكون القصد خالصاً لوجهه الكريم.

خامساً: ومكة بعيدة عن مراكز الحضارة في بلاد فارس والروم، وأهلها أميون، وكان بعض العرب يدفعون الضرائب للأمم الأخرى اتقاء لشرها، فكيف يعقل أن تخرج شريعة ذات قوانين تعلم الناس قواعد الحضارة والتعايش السلمي من قلب الصحراء؟ إنها النبوة ولا احتمال غير هذا، وخروج الشيء من غير موضعه المعتاد أظهر لقدرة الله تعالى، ودليل على أن معجزة ما قد حصلت، وقد أقر بهذا هرقل عظيم الروم في حديثه مع أبي سفيان، وذكر بأن محمداً هو نبي آخر الزمان، وهذا من فضل الله على أهلها والعرب، قال تعالى يتحدث عن النقلة النوعية للعرب بفضل الإسلام: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الجمعة: ٢).

سادساً: وإذا كانت مكة في بلد غير ذي زرع، فهذا قد يقتضي جوع أهلها، ولكن أنى يجوعوا وقد دعا لهم إبراهيم عليه السلام بالرزق، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (البقرة: ١٢٦)، وهذا الدعاء معجزة باقية متحققة إلى يوم القيامة، والبلد الفقير لا تكاد تجد فيه ما يسد الرمق، ولكن الله هياً لأهلها أسباب الرزق والتجارة، فلا تعدم شيئاً إلا وجدته بمكة، أليس هذا دليلاً على فضل الله ورعايته لأهلها؟

سابعاً: وأما ماء زمزم فهو الشفاء لكل داء بإذن الله تعالى، وهو أمر مجرب، قال الشاعر:

يا من يعاني... همه الأسقام

وتذيقه مرّ الأسى الأيام

اهرغ لزمزم فارتشف من بيرها

تلقى المنى.. وكأنك الضرعام

والله قد جعل الشفاء بمائها

فتحققت من فضله الأحلام

وبقاؤه حتى يومنا هذا دليل على الكرم الإلهي الذي لا ينفد، ويندر أن تجد بئراً في الصحراء لا تنضب عبر آلاف السنين

مع شرب الألوفا منها.

ثامناً: وأثبت العلم الحديث أن مكة مركز للأرض، ولما كانت مركزاً استحققت أن تكون قبلة لأهلها أيضاً، وقد نشرت مجلة العلم والإيمان الليبية مقالات عدة بهذا الخصوص.
فطوبى لأمة هذه بعض مزايا قبلتها، وطوبى لمن سكن بلدة هذه بعض خصائصها، وطوبى لمن زارها حاجاً أو معتمراً يطلب عفو الله وغفرانه إلى يوم الدين.

هل في العالم ضمير حر؟

أوجاع الناس تزداد يوماً بعد آخر، الفقر والجوع والأمراض الفتاكة في ازدياد مطرد، وعندما يتابع المرء أخبار الفضائيات تسيطر عليه الكآبة، وتظلل عيناه سحابة من حزن، وتجعله يتساءل: هل في العالم ضمير حر؟ في الماضي كان لدينا مشكلة اسمها فلسطين، واليوم لدينا مشاكل شتى ليس آخرها العراق، بالأمس كانت الأمة تتطلع إلى تحرير مقدساتها، واليوم تخاف على ما بقي لديها من مقدسات، شعوب تمزقها أنياب الفقر، وتشم رائحة الموت أكثر مما يشم المترفون رائحة العطور، وتذوق من ويلات الحروب وفقد الأمن ما جعل الموت أهون عندها من الحياة، وفي مقابل ذلك تجد في شمال الكرة الأرضية شعوباً مترفة غارقة في شهواتها وملذاتها، وتبيح القتل والفتن وتدمير الآخر ونهب ثرواته لأجل مصالحها، وتستثمر كل طاقتها من أجل مزيد من الهيمنة على الفقراء والمستضعفين في هذا العالم، فهل في العالم ضمير حر؟

إذا تأملت في أوضاع الناس ترى عجباً في عصر الديمقراطية والعمولة، فهذا مضطهد في سبيل فكرة، يدفع في سبيلها شبابه، فهو إما مغيب في زنزانة لا تعرف الضوء، أو مهاجر في أقطار الدنيا لا تعرف له قرار، كورقة من شجرة في مهب الريح، فهل استطاعت البشرية أن تحرر الفكر من سطوة الطغيان؟

وذاك جائع لا يملك قوت يومه، قد نخل جسمه، واصفر لونه من شدة الجوع، وهو ينتظر كسرة خبز من أية هيئة إغاثية، وربما استدرجته تلك الهيئة ليغير دينه من أجل خدمات أكبر، فتنة تشبه فتنة المسيح الدجال، فاللقمة مقابل العقيدة، والعيش مقابل الاتباع للباطل، فهل استطاع شرفاء العالم وأحراره إنقاذ الناس من مشكلة الفقر؟ وتلك شعوب تستباح حرماؤها، ويحتل بلادها الغزاة، ويدمرون كل ما أنجزته تلك الشعوب بعد الاستقلال، فهل استطاع العالم أن ينهي مشكلة السطو والاحتلال ونحن في أعتاب القرن الحادي والعشرين للميلاد؟

وذاك شباب ضائع، باسم الحرية انفلت وراء أهوائه ولذاته، فصار عرضة للضياع والأمراض والانحرافات المختلفة، فهل في العالم من يقول: إن الحرية مسئولية والتزام وليست إباحية وفوضى؟ لقد تحول الإنسان في ظل المادية إلى وحش كاسر، وأصبحت الحياة غابة وصراعاً ما بعده من صراع، وتحولت الأرض إلى بركان يغلي أو قطعة من الجحيم.

هذا ما حصل ويحصل في عصر التطور والعمولة وغزو الفضاء، فقد شهد القرن الماضي أول تجربة من نوعها لحربين عالميتين مدمرتين مزقتنا لحوم الملايين من البشر، وهذا ما يحصل في مستهل الألفية الثالثة أيضاً، لقد انتهى رق الفرد ليبدأ رق الأمم والشعوب، وانتهى عهد الفضيلة ليبدأ عهد الرذيلة، وانتهى عصر الإيمان ليبدأ عصر الفسق والضلال.

لم يعد هناك من يشعر بالآلام المظلومين والمحرومين على هذه الأرض، ولم يعد هنالك من يمسح دموعهم، فالعالم إما ظالم مستبد لا يراعي حرمة شيء، أو مظلوم لا يقدر من أمره على شيء.

أيها المظلومون إذا لم ينصفكم أهل الأرض فاتجهوا للسماء، فإن في السماء إلهاً يدبر الأمر كله، قال تعالى: (ولا

تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (إبراهيم: ٤٢).

هل ستسقط حضارة الغرب؟

السقوط نوعان، سقوط معنوي وسقوط مادي، فأما السقوط المعنوي، فهو في خيانة المبادئ التي تدعو إليها من أجل مصلحتك، وهذا السقوط وقع فيه الغرب، فهو يرضى لنفسه الديمقراطية ويدعو إلى حقوق الإنسان، بينما في الحقيقة يكرس الحقد والكراهية بين الشعوب، ويرعى الظلم والاستبداد، ويحارب صوت الحرية والأمل، إما مباشرة أو من وراء الكواليس، فهو مزدوج السلوك ويكيل بمكيالين، ولذلك تساءل أحمد شوقي في مطلع قصيدة يرثي بها عمر المختار:¹

ما ضرَّ لو جعلوا العلاقة في غدٍ

بينَ الشعوبِ مودَّةً وإخاءً

وأما السقوط المادي ففيه رأيان:

الأول: يرى أن العالم وصل إلى نهاية التاريخ، وأن الغرب سيقى في سطوته إلى أن يدب الفناء في هذا العالم.

والثاني: يرى أن الغرب إلى زوال، بفعل الأسلحة الفتاكة التي يصنعها، والفكر المدمر الذي يحمله، ومن هؤلاء فلاسفة كبار في الغرب نفسه، منهم شلنجر وكولن ولسون وسارتر وغارودي وغيرهم. ولا يعيننا أن نتصر لرأي دون الآخر، وإنما تعيننا الحقيقة، ونحن نميل إلى الرأي الثاني، لأن طبيعة الحياة تقتضي التغير والتجديد مهما حاولنا أن نقف في وجه رياح التغيير، فالدول كالأفراد لها أعمار كما ذكر ابن خلدون، وهي تلد وتشب وتحم وتتنقضي، فالفناء نهاية كل دولة، وإنما له أسبابه، فإذا عولجت الأسباب وهو ما يحاول الغرب أن يفعله، فقد يتأخر طويلاً سقوط الدول، ولكن لا بد من الموت النهائي، فالخلود من خصائص العالم الآخر، وليس قميناً بأحد في الدنيا.

وأعمار الدول مجهولة كما هو الحال في الأفراد، وإن كانت النهايات محتومة، وهناك ما يدل عليها، لذا لا ينبغي السؤال: متى؟ لأن الجواب في علم الغيب، وإنما السؤال: لماذا وكيف؟ أما لماذا فقد ذكرنا أن سنن الحياة تقتضي فناء كل واحد، وأن يقوم غيره مكانه، وتاريخ البشر كله يؤكد ما نقوله هنا، وهذا يعود لأمر سنني كوني، وهناك أمر آخر يعود إلى طبيعة الحضارة الغربية وما فيها من قيم فاسدة ومجون صاحب وإلحاد وظلم، مما يجعل الفتك بالبشر واقعا لا محالة، وهو إن تأخر حتى ينتهي الغرب من صيد فرائسه، فإنه سيتصارع فيما بينه في مرحلة لاحقة، فالمصالح التي توحد الناس حيناً قد تجعلهم يختلفون أحياناً، فهي متغيرة ومتناقضة ما بين الأمم والجماعات عبر التاريخ كله، وعليه

¹ - الشوقيات، شرح د. يحيى شامي، (٤٣/١)، دار الفكر العربي، بيروت.

فالصراع هو مرحلة قادمة من عمر البشر، وسينتهي بولادة عالم جديد على الأرض، فيه قوى جديدة غير تلك البارزة الآن.

وأما كيف ستنتهي حضارة الغرب، فذلك يكون بأحد الاحتمالات التالية: إما بولادة الصراعات الداخلية كما سبق ذكره، وهذه ستؤدي إلى التفكك والتحلل الذاتي لشعوب تلك الدول، أو بولادة قوى جديدة منافسة لحضارة الغرب تكون لها الهيمنة في المستقبل، أو بفساد اقتصادي ينهي سيطرة الغرب على الثروات في هذا العالم، أو بتغيرات وكوارث طبيعية بسبب التلوث الذي يعتري العالم نتاج المخلفات والثورة الصناعية.

ولا يعني سقوط الحضارة الغربية ظهور حضارة الشرق، فالأمر ليس كذلك، فلا بد لأي ظهور حضاري محتمل من الأخذ بالأسباب المختلفة لهذا الغرض المطلوب، يقول شوقي^١:

وما نيلُ المطالبِ بالتمني

ولكنْ تُؤخذُ الدنيا غِلابا

يتمنى كثيرون أن لا تسقط حضارة الغرب، فقد قدمت إنجازات كثيرة للإنسانية على الرغم من كل سلبياتها، والأمل أن ترشد ولو قليلاً، فتعود إليها قيم الرحمة والأخلاق قبل أن تتدحرج إلى مصيرها المحتوم.

^١ - الشوقيات، (١/١٠٤)، وعلم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، ص (٧١)، دار النهضة العربية.

فضيلة القناعة

القناعة كنز لا يفنى، وتتجلى فضيلة القناعة في المواقف الصعبة التي تزل فيها الأقدام، فعندما يدخل بعض الناس على الأغنياء مثلاً تفتن عقولهم، وتطيش أحلامهم، ولا يخرجون من عندهم إلا وهم يلعنون حظهم النحس في دنياهم السوداء كما يزعمون، فيكون حال هؤلاء كما قال عمر بن الخطاب: (من دخل على الأغنياء خرج وهو ساخط على الله)^١

والسبب في ذلك أن النفس الإنسانية مليئة بالرغبات والتطلعات لتحقيق أقصى درجات المتاع في هذه الحياة، فعندما تجد أن ثمة عوائق تقف دون تطلعاتها فإنها سرعان ما تياس وتضجر، وقد تكفر بقدر الله عز وجل إذا لم ترزق نعمة القناعة، كما فعل ابن الروندي حين قال:^٢

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيت مذاهبه

وجاهلٍ جاهلٍ بات مرزوقا

هذا الذي ترك الأوهام حائرة

وصير العالم النحرير زنديقا

وحب المال من الفطرة، قال تعالى: (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) (الفجر: ٢٠)، ولكن الأرزاق تتفاوت، والفرص تتفاوت، والطاقات تتفاوت، مما يجعل الناس مختلفين في أرزاقهم، ولذلك فرض الدين الحق على الأغنياء زكاة يؤدونها للفقراء، وذلك من أجل سد حاجات الفقراء، ودفعاً لجرميتي: السرقة والسطو، وردماً للهوة الكبيرة بين فئات المجتمع. وماذا لو دخل الإنسان بيوت الأغنياء ومجالسهم فرأى الخدم والحشم، والستائر الحريرية الموشاة بالذهب، ومختلف أنواع الأطعمة، وخيل إليه في تلك الأجواء الحاملة أنه في جنة الخلد؟ بل لقد بلغ حمق بعض المترفين من أهل المال أن جعلوا صنابير المياه ونحوها مما يُستحى من ذكره من الذهب الخالص! ومثل هذا الإسراف من شأنه أن يخلع قلوب الفقراء، فالحسد داء قائم بين الناس، والنفس ترغب وتتمنى، وتسعى نحو عاجل اللذات، مما يولد صراعاً في داخلها، قد يوصلها إلى ازدياد نعم الله تعالى، متناسية أن هنالك من النعم التي ترفل فيها ما هو فوق نعمة المال، فالعقل والدين، والصحة وسلامة الحواس، والأمن وسلامة الأهل والأبناء، نعم لا تقدر بثمن أبداً.

ما أحوج النفوس إلى التربية والتهذيب! وما أحوج الفقراء إلى الرضا والقناعة، وما أحوج الأغنياء إلى الكرم

والإنفاق!

١ - عيون الأخبار، (٣/٢٤٧).

٢ - التلخيص للخطيب القزويني، بشرح البرقوق، ص (٩١) دار الفكر العربي.

مسئولية الأديب التربوية والاجتماعية

الأدب واحد من الفنون الجميلة، ولعله أهمها، فقلما تجد أمة متحضرة إلا وقد احتل الأدب فيها مكانة مرموقة، وهنالك من يرى أن مقياس تطور الأمم هو بمقدار رقيها في مجال الفنون الإنسانية عامة، والأدب على وجه الخصوص. والأدب مرتبط بالحياة، فحينما تكون الأمة قوية يكون أدبها كذلك، وعندما تنحدر الأمة حضارياً تنحدر آدابها وفنونها، ووظيفته إثراء الحياة، والحياة بدورها تمد الأدب أيضاً، فالعلاقة بينهما تلازمية، وضعف أحدهما ينعكس على الآخر، وذلك لأن الأدب صورة عن المجتمع في مختلف جوانبه.

والأديب الأكثر شعبية هو الذي يتاح له قدر من الحرية ليبر عن آلام الناس وآمالهم، فهو لسان الجماعة وتعبير عن شعورها، فإذا قصر في هذا الجانب تضاعف تأثيره وقد يتحول أدبه إلى صناعة لفظية مزيفة.

وأمتنا العربية تعيش في الوقت الراهن ظروفًا عصيبة، ويحاك ضدها مؤامرات واسعة، وقد تزعزعت ثقة الناس بها، وصارت موضع الفكاهة والتندر بين الأمم، فوضى تضرب أطنابها، وتخلف عميق الجذور، وفقر يقرع طبوله، وخوف من كل اتجاه، وغزو وأسر وتدمير وحرق ونهب، وقد ألحق هذا بالإنسان العربي هزائم نفسية جعلته يشعر بالانكسار والإحباط، فماذا فعل أدباؤنا الكرام؟ هل عبروا عن آلام الإنسان العربي؟ هل فكروا في أسباب شقائه؟ هل أعطوه شيئاً من الاهتمام والرعاية؟ في الحقيقة لم يعرض لمثل هذا إلا نفر قليل منهم، وأما معظمهم فما زالوا يعيشون على هامش الحياة، وكأننا ما زلنا في العصر المملوكي أو العثماني، بعيدين عن المسؤولية، متجردين من أي إحساس وطني أو قومي أو حضاري أو ديني.

إن معظم النتاج الشعري في وسائل الإعلام يدور على محورين: المديح والغزل، أما المديح فهو في معظمه فح كز، لا يخلو من غلو وتشادق، وهو يعود بنا إلى العصر العباسي والمملوكي، فما الشعوب إلا سوام يقودها الراعي الأمين وذلك على حد قول البحثري يمدح المعتز بالله:¹

هو الراعي ونحُّ له سوامٌ

ولم نر مثله راعي سوام

ولكن ليس ثمة فتوحات تبرره، أو انتصارات توجبه، فتاريخنا المعاصر مليء بالهزائم والانكسارات الحضارية، فمن أين تأتي البطولات المزيفة، والأبجاد المصطنعة التي يتغنى بها الشعراء؟

وأما في الغزل فقد حدث تطور هام، إذ انتهى الغزل بالمذكر الذي شاع في العصر العباسي والمملوكي وهذا أمر إيجابي، ولكن العجيب أن نجد شعراء مراهقين وبعضهم في خريف العمر! ولا ننكر أن من حق الإنسان أن يتغزل وهو في خريف العمر، فهو بذلك يتذكر عهود الصبا الندية، ويدفع عن نفسه هم الشيخوخة، ولكن يفضل أن يكون غزلاً صوفياً أو عذرياً بعيداً عن التهيج والوصف الحسي، وأن يشوب أدبهم شيء من التعقل والحكمة، لأن لكل مرحلة من

¹ - مختارات البارودي، (١/٣٠٦).

العمر خصائصها، فحبذا أن يكون لديهم شيء من حكمة زهير بن أبي سلمى، وزهد أبي العتاهية، وأن لا يكون اهتمامهم قاصراً على الغزل وحده.

وينبغي في الغزل الرقة والصدق، وليس وصف الأعضاء البشرية وصفاً تفصيلياً، وأن يكون مرتبطاً بالفروسية والحماسة، ويدفع إلى البطولات والملاحم، ويوقظ في النفس معاني القوة والإباء على طريقة عنتره الذي يقول: ^١
ولقد ذكرتُكُ والرماحُ نواهلُ

مني وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمي

فوددتُ تقبيلَ السيوفِ لأهَّما

لمعتُ كبارقِ ثغركِ المتبسِّمِ

أما الغزل الذي يحول الشباب فريسة للهوى والأحلام والأخيلة والأوهام، ويسلب منهم كبرياء الرجولة، فهو شعر مدمر للحلق، وذلك مثل قول نزار قباني: ^٢

كان نهداك مليكين عظيمين

وكانا يحكمانِ البرِّ والبحرِ

وكان العدلُ موفوراً

وكان الخبزُ موفوراً

وكان الشعبُ يدعو للمليكين بطولِ العمرِ

في كلِّ الميادينِ وفي كلِّ التكايا

وأنا من حسنِ ظني أني

عاصرتُ نهديكِ

وقدمتُ ولائي لهما

مثلَ ملايينِ الرعايا

وهذا الكلام الماخن يعمل أثر المخدر في الجيل الصاعد، فيشغله عن واجبه، ويجعله فريسة للهوى والشيطان!

إن واجب الفنان أن يهذب الغرائز ويلتزم بالقيم التي تؤمن بها أمته، لا أن يثور على تلك القيم، ويدعو إلى المجون والانحلال.

فالانفلات والتحرر من قيود الأخلاق والمجتمع سيؤدي إلى تفكك الأسرة، وانتشار الجريمة في المجتمع، والفن ليس من وظائفه الإثارة وبعث الغرائز ونشر الجريمة، وإنما وظيفته الأولى تهذيب الغرائز وصقل النفس الإنسانية.

^١ - شرح القصائد العشر، للتبريزي، بتحقيق د. قباوة، ص (٣٠٣) دار الآفاق الجديدة، بيروت.

^٢ - أشعار خارحة على القانون، ص (٩٢).

أليس مؤسفاً أن يتحول الأدب إلى صناعة مزيفة، والأديب إلى متسول أو مراهق! إننا لسنا ضد المديح أو الغزل، ولكن عندما توجد مبرراتهما، وعندما يكون ذلك بحجمه الطبيعي دون أن يكون هنالك تضخم في جانب من جوانب الشعر أو الأغراض الأدبية على حساب بقية الأغراض، ولا نقبل أن يكون الشعر هادماً لقيم المجتمع وآدابه، لأن رسالة الشاعر حفظ الأخلاق وشحذ الهمم نحو المعالي، قال أبو تمام:^١

ولولا خللاً سنّها الشعرُ ما درى

بغاهُ العلا من أين تُؤتى المكارمُ

^١ - مختارات البارودي، (٢٠/١).

التضامن الاجتماعي عند الغرب

عجيب أمر أولئك الغربيين الذين ملكوا العالم بسطوتهم أو كادوا، وعجيب تضامنهم أمام الأمم الأخرى، فعندما يختطف أحد رعاياهم أو يتعرض لأذى فإن العالم يقوم كله لهذا الحادث، ووسائل الإعلام جميعها تصرخ وتزجر، وتهتز دولته غضباً، ويصبح حديث المسؤولين فيها، وتبذل الجهود، وتقوم المفاوضات السرية حيناً والعلنية حيناً آخر، كل هذا من أجل مواطن واحد من أبناء تلك الدولة.

أما إذا اختلفت دولة أوروبية مع دولة أخرى غير أوروبية، وقف الجميع صفواً واحداً أمام تلك الدولة، وهذا ما حصل في الآونة الأخيرة بين المغرب وإسبانيا عند اختلافهما حول جزيرة صغيرة كانت أصلاً للمغرب.

أما في البلدان الشيوعية سابقاً، وفي بعض بلدان العالم الثالث، فالإنسان فيها على وجه العموم قد لا يساوي قيمة كبيرة، فهو في مربعه محتقر، وفي داره ذليل، وبين أحضان أهله غريب، يتكلم بلا لسان، ويطلب من جلاده الأمان، إن عاش فكالنعامة، وإن مات مع السلامة!

صورتان متناقضتان للإنسان بين الشرق والغرب، في الأولى هو إنسان يتمتع بحواسه كلها، ويمارس الرياضة، ويعيش في نظام، وفي الثانية يكاد يكون معدوم الحواس، فهو لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم، بطنه من الجوع ضامرة، وعيونه من البكاء غائرة، يبحث عن لقمة تسد جوعه، وخرقة تستر عورته، ينام على الرصيف، ويكفيه في يومه رغيغ.

إن التلاحم بين الفرد والمجتمع هو من أهم أسس النجاح والتفوق الحضاري، وقد طلب منا النبي محمد عليه السلام أن نكون كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وهذه أسمى صورة للتكافل الاجتماعي يرسمها دين على وجه الأرض، ولكننا غيبنا هذه الصورة، فنحن نملاً الدنيا ضحيجاً حول حقوق الإنسان في الإسلام، بيد أن الواقع شيء آخر، حيث هذه الحقوق لا نكاد نطبق منها شيئاً، والتعاضد يكاد يكون مفقوداً بين أبناء الأمة الواحدة حتى على مستوى الرياضة والفن.

وإذا كنا نعجز عن إطعام الجائع، ونصرة المظلوم، وإيجاد الحلول العملية لمشكلات الشباب، فكيف سنجد حلاً لمشكلات أكبر؟ لقد أصابنا العجز في كل شيء، حتى في التفاهم فيما بيننا، مما جعل الأمم الأخرى تهب لنجدتنا كما تزعم، وتسلمنا غصن الزيتون، وهو يقطر من دمائنا.

إننا إذ نذكر النواحي الإيجابية عند الغرب ليس بقصد مديحه، ففيه من السلبات ما يكفيه،

ولكن علينا أن لا ننكر أهمية تعاضده أمام الآخرين، وحرصه على أبنائه خارج حدوده، ألسنا أولى منهم بذلك؟

ويرجع السبب في هذا التلاحم بين الفرد والمجتمع إلى ما حققه المجتمع للفرد من الحرية والكرامة، حتى صار الفرد يحس بانتماء حقيقي لهذا المجتمع، وهو انتماء نجده حتى عند الأقليات المهاجرة التي تجد في غربتها من الأمان والحرية ما لا تجده في أوطانها الأصلية، يقول الأستاذ مختار مسلاتي عن الإسلام في أمريكا: (إن المؤتمرات الإسلامية، وحلقات الدرس الأسبوعية بالمساجد، التي تقام في طول وعرض أمريكا هي ظاهرة من ظواهر الصحوة الإسلامية المباركة، وهي أيضاً لها

أثر طيب في تثقيف كثير من المسلمين الذين اكتسبوا الإسلام بالوراثة، ولم يعرفوا منه غير العبادة والصوم والزكاة . إذا كان في الواقع عرفوا ذلك . وساعد على ذلك جو الحرية التي أتاحتها القانون الأمريكي وضمنها، فأصبحت المساجد مفتوحة لمن يريد أن يتعلم ويعرف حقيقة دينه، وهذا المحيط لا يتوفر في كل الدول العربية، وبعضها يصل بها الأمر لغلاق أبواب المساجد بعد وقت قصير من إقامة الصلاة، ولا يتكون إلا ركن صغير منعزل به حصيرة قديمة مهترئة ومثقوبة ليؤدي عليها من يريد صلاته في دقائق ثم يذهب).

إن حرية الإنسان وكرامته هي أساس التضامن والتلاحم بين الفرد والجماعة، ولله در أبي الطيب حين قال:

وكل امرئٍ يُؤلي الجميلَ محبٌ

وكلُّ مكانٍ ينبئُ العزَّ طيبٌ

فهل يأتي يوم يتضامن فيه أهل المشرق ولو صورياً علماً أن الأديان السماوية والحضارات القديمة انبثقت من الشرق فاستنار منها العالم، أم سيبقى الاختلاف هو الشيء الوحيد المتفق عليه حتى قيام الساعة؟

النصر لهذا الدين: حقيقة أم خيال؟

قضية انتصار الإسلام نسأل الله أن يجعلها حقيقة وليست خيالاً، ولكن إذا أردنا دراسة هذا الأمر بشكل موضوعي نجد موقفين:

الموقف الأول يؤكد كحتمية تاريخية، فبعد سقوط العقيدة الشيعوية لم يبق هنالك منافس للإسلام في الساحة، وهو الحل الوحيد المطروح لحل مشكلات العالم، وأما يسمى بالعمولة فهي فضلاً عن أنها لا تملك تفسيراً كاملاً للحياة، ولا تجيب عن أسئلة الفطرة، فقد أسهمت العمولة في إيجاد مشكلات جديدة في الواقع المعاصر، فهي ليست حلاً بقدر ما هي مودة.

ويعود سبب الأمل بنصر الإسلام، لقضايا تتعلق بشمول منهجه ويسره وواقعيته وصلاحيته للحياة، فهو قائم على الفطرة، ويحترم العقل، ويدعو إلى التفكير في ملكوت السموات والأرض، وهو دين الرحمة والعدل والحرية والمساواة بين الشعوب، ويحترم كافة القيم النبيلة في الحياة.

وهو دين يهذب سلوك الفرد والجماعة، ويقيها من الانحرافات والردائل، ويرفعها إلى المستوى اللائق بهما لحمل رسالة الله في الأرض.

والإسلام قادر بفلسفته وتعاليمه الربانية على مجابهة كافة الأخطار التي تهدد السلم العالمي، من فقر مدقع، وأمراض مزمنة، وحروب طاحنة، فينشر لواء السلام على هذه الأرض.

ومما يؤكد ما سبق اعتناق الكثيرين في الغرب والشرق للإسلام، ومنهم أعلام كبار في العلم والبحث والفن والرياضة، فقد وجدوا في الإسلام ما فقدوه في ثقافتهم وأديانهم.

الموقف الثاني يرفض الفكرة المسبقة، وهو يعتمد في ذلك على ما يرى من حروب وكيد ودسائس لدى قوى البغي مجتمعة لمحاربة أمة الإسلام، إضافة إلى أن المسلمين في منتهى الضعف والفرقة والتطاحن الداخلي فكراً وعقدياً، وجلهم قد انصرفوا عن الإسلام بشكل عملي، واتبعوا حضارة الغرب في حياتهم الدنيوية، ومفاسد الحضارة الغربية كلها موجودة في مجتمعاتهم على صور مختلفة، والتابع لا يمكن أن يكون قائداً، لأنه مهزوم فكراً ونفسياً وحضارياً، ناهيك أن الناس مركز في حب الدنيا وشهواتها، قال تعالى: (زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَتِيزِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ) (آل عمران: ١٤)، وقال أيضاً: (كَأَلَّا بَلَّ تُجْبُونُ الْعَاجِلَةَ) (القيامة: ٢٠)، ومن رأى زينة الأرض وفتنتها في العصر القديم افتتن بها، فما بالك في العصر الحديث وما فيه من مباحج ومخترعات وزينة، وعليه فالإسلام يزداد غربة يوماً بعد يوم، حتى يأتي يوم لا يجد فيه المسلم إلا رؤوس الجبال ووديانها يتعبد فيها حتى يأتيه اليقين.^١

ولكل من الفريقين أدلته النقلية والعقلية، ولكي لا نذهب مع أحدهما ضد الآخر، نقول: إن ثمة مبشرات كثيرة

^١ - انظر: مشكاة المصابيح، (١٤٨٢/٣).

وهذا صحيح، وثمة أشياء أخرى توحى بعكس ذلك، والغيب متروك إلى الله تعالى، ولا يعني انتصار الدين بقاءه قوياً إلى يوم القيامة، فهناك فتن كثيرة ستكون قبل يوم القيامة أشدها فتنة الدجال، ولا يعني الخساره أنه سيبقى ضعيفاً إلى يوم القيامة، فهناك بشائر كثيرة قبل يوم القيامة منها نزول عيسى بن مريم من السماء وقتله الدجال، فما من خير إلا وسيعقبه شر، وما من شر إلا وسيعقبه خير، والأيام دول، قال تعالى: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) (آل عمران: من الآية ٨٧)، (الآية ١٤٠)، وعلينا أن لا نياس، قال تعالى: (إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنَ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) (يوسف: من الآية ٨٧)، وواجبنا أن نعمل في الحالتين سواء كان هنالك مبشرات أو منفرات، فهذا هو المطلوب منا، وأما النصر فموكول إلى الله في الحالتين، قال تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (التوبة: ١٠٥)، ولنكن إلى البشر والتفاؤل أقرب، فالله مع عباده وجنده، وهو ناصرهم في النهاية، قال تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (الأنبياء: ١٠٥).

لا تغلو في مديح نبيكم عليه الصلاة والسلام

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف البشر، نعته الله بالنبوة، فقال: (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) (آل عمران: ٦٨).

ونعته بالرسالة، فقال: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (المائدة: ٦٧).

ونعته بالعبودية، فقال: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) (الكهف: ١).

وامتدح أخلاقه الشريفة، فقال: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم: ٤).

ووعده مقاماً محموداً، فقال: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً) (الإسراء: ٧٩).

وغفر له جميع ذنوبه، فقال: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) (الفتح: ١-٢).

وبين أنه يحفظه ويرعاه، فقال: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) (الطور: ٤٨).

ومكارم الله ونعمه على عبده محمد صلى الله عليه وسلم لا تكاد تحصى، ولكنه يبقى في البداية والنهاية بشراً، قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (الكهف: ١١٠).

ولا ينبغي لأحد أن يعبد من دون الله تعالى أيّاً كان مقامه، قال تعالى: (وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (آل عمران: ٨٠).

ومن ادعى الألوهية كان عقابه في جهنم، قال تعالى: (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكِ نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) (الأنبياء: ٢٩).

وقد حرص الأنبياء على سلامة التوحيد، ونهوا عن الشرك بجميع أنواعه، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ آأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) (المائدة: ١١٦)، وكان النبي عليه السلام كان يخشى من أن تقع أمته في الشرك الذي وقع فيه النصارى من قبل في رفع نبيهم إلى مرتبة الألوهية، فقال محذراً: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله).^١

على أن هنالك بعض المسلمين يغالون في مديحه عليه السلام، معتمدين على آثار صحيحة لم يفهموا تأويلها، وأخذوها على ظاهرها، أو على آثار ضعيفة لا تقوم بها الحجة، وأخرى موضوعة باطلة، فزعموا لمحمد ما لم يزعمه

^١ - متفق عليه عن عمر، مشكاة المصابيح، (١٣٧٢/٣).

لنفسه، قال البوصيري:^١

فإن من جودك الدنيا وضررها

ومن علومك علم اللوح والقلم

ومحمد عليه السلام لم يخلق شيئاً، ولم يكن سبباً في الخلق، بل السبب في الخلق هو العبادة، قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: ٥٦)، كما أنه لا يعلم كل شيء حتى يعلم علم اللوح والقلم، فمن ذلك أنه لا يعلم القراءة والكتابة، قال تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ) (الأعراف: من الآية ١٥٧)، ولا يعلم الغيب، قال تعالى: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف: ١٨٨)، ولا يعلم ما هي الروح، قال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) (الاسراء: ٨٥)، ولا يعلم موعد الساعة، قال تعالى: (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً) (الأحزاب: ٦٣)، ولا يعلم الشعر، قال تعالى: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) (يس: ٦٩).

وعليه فلا ينبغي الغلو بشخص النبي عليه السلام، وليست محبته في إطراء المديح له، وإنما باتباعه صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (آل عمران: ٣١).

^١ - الدرر في مدح سيد البشر، أشرف عليها محمد علي الإدلي، ص (٢٦)، مطبعة الأصيل، حلب، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

ذروة سنام الإسلام

الجهاد في سبيل الله تعالى هو ذروة سنام الإسلام، فإذا عطل الجهاد أصبح الدين على وشك الزوال، ولما كان الدين باقياً إلى يوم القيامة، كان الجهاد أيضاً ماضياً إلى يوم القيامة.

ومكانة الجهاد العالية في الدين لأنه ركيزة بقاء هذه الأمة، وسر استمرارها، والجهاد يقوم به الإمام أو من ينوب عنه، وهو فرض كفاية إلا في حالة الغزو الخارجي لدار الإسلام فهو فرض عين.

وقد كان السلف سباقين إليه لما فيه من الأجر والثواب، روى أنس أن أبا طلحة الأنصاري قرأ سورة براءة، فأتى على هذه الآية: (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (التوبة: ٤١)، فقال: (ألا أرى ربي يستنفرني شاباً وشيخاً، جهزوني، فقال له بنوه: قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبض، وغزوت مع أبي بكر حتى مات، وغزوت مع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك. فقال: جهزوني، فجهزوه، وركب البحر، فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفونونه فيها إلا بعد سبعة أيام فلم يتغير).^١

والإسلام لم يخترع الحرب، فهي موجودة قبله وبعده، ولذلك رصدت الأمم منذ فجر التاريخ وحتى الآن خيرة أموالها وأبنائها للذود عنها عند الشدائد، أو لتحقيق أهداف اقتصادية ومطامع سياسية، وعندما شرع الجهاد في الإسلام كان بقصد حماية دولته، ودفع الظلم والضرر عن أهلها، قال تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) (الحج: ٣٩)، والإسلام لم يعمل أكثر من تنظيم للحرب، وجعلها منضبطة بالقوانين الأخلاقية السامية، فهو ليس مسئولاً عن قيام الحروب في تاريخ البشر، وليس ملوماً لأنه نظم قواعد الحرب والسلام، لأن الحياة فيها الحرب وفيها السلام، وكونه دين شامل للحياة بكل جوانبها، فقد نظم قواعد الحرب ووضع لها آداباً وشروطاً، وهي أمور لم تعرفها الأمم الأخرى، ووضع الإسلام لتلك القواعد والآداب لا يعني بأنه دين إرهابي حاشا وكلا، بل يعني أنه دين واقعي، ولولاه لبقيت أخلاق الناس في الحرب شبيهة بسلوك الوحوش في الغابات، فالدين له السبق بأن وضع قواعد إنسانية لولاها لما تمدن القانون البشري، ولما قامت موثيق حقوق الإنسان في العصر الحديث.

في أوائل القرن الماضي قام مصطفى كمال أتاتورك بإلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا، وأقفل المساجد الكبرى مثل أياصوفيا وبايزيد والسلمانية، وحرم لبس العمامة وأمر بلبس القبعة، وغير الحرف العربي الذي يستخدمه الأتراك في لغتهم إلى حرف لاتيني، ومنع الحجاب، وفرض العلمانية في البلاد... بعد ذلك افترس الاستعمار بلاد المسلمين، ونهب ثرواتهم، ثم قامت دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨م، وإزاء هذا الغزو قامت حركات التحرر الوطني في عموم البلاد الإسلامية تدافع عن بلادها وأمنها، وبدأ المسلمون يحلمون بالتحرر من الاستعمار، وكان الجهاد في هذه الفترة سبيلاً وحيداً للخلاص من الاستعمار، ولذلك كتبت عشرات الكتب حول فريضة الجهاد تستحث المسلمين للنهوض من أجل

^١ - انظر: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، (١٥٢/١٦). مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة،

مقاومة الاستعمار.

بعد مرحلة الاستقلال بدأ جهاد آخر، وهو بناء الأمة، فالجهاد ليس مقصوراً على القتال، بل هو عملية بناء للأمة في شتى جوانبها، فالعالم الإسلامي قد عم فيه الخراب المادي والمعنوي جراء حروب الاستعمار، فلا بد من إعادة ترتيب الأوضاع داخل البيت المسلم، وبخاصة في ما يلي:

أولاً: الجهاد الثقافي والعلمي بالتححرر من الغزو الفكري، والوثنيات والأفكار المادية المعاصرة، قال تعالى: (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) (الفرقان: ٥٢)، والضمير في (به) يعود إلى القرآن، أي جاهدهم بما في كتاب ربك من الحجة والمعرفة.

ثانياً: الجهاد الاقتصادي والذي يتمثل بالسعي والكف عن سؤال الناس، روى الطبراني بإسناد صحيح عن كعب بن عجرة، قال: مر على النبي صلى الله عليه وسلم رجل، فرأى أصحابه من جلده ونشاطه ما أعجبهم، فقالوا: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل الله! قال: (إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان)^١، وما ينطبق على الفرد ينطبق على الجماعة، فالأمة التي تسعى لتحقيق الأمن الغذائي لأفرادها، ولكي تستغني عن المعونات الاقتصادية التي تقدمها لها الهيئات العالمية هي أمة مجاهدة، بل هذا هو الجهاد الذي ينبغي على المسلمين الاهتمام به فقد انتشر الفقر والمجاعات في معظم بلدانهم.

ثالثاً: مكافحة التخلف بكل أشكاله جهاد، ففي الحديث عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله). متفق عليه.^٢، ويستفاد من الحديث أن الذين ماتوا بسبب الأمراض أو الغرق أو الهدم أو الحرب كلهم شهداء، وعليه فمكافحة الأمراض التي تفتك بالناس، واتخاذ أسباب السلامة من الغرق والهدم، ألا يكون جهاداً؟ بمعنى آخر ألا يكون الطبيب المعالج للمرض، والباحث الخبير الذي يريد اكتشاف علاج للمرض، ومدرب السباحة أو رجل المطافئ الذي ينقذ الغرقى، والعامل الذي يهدم ويبنى، والجندي الذي يده على الزناد أليسوا جميعاً مجاهدين في سبيل الله؟. بل كل من قاوم التخلف والجهل والمرض هو مجاهد في سبيل الله، وفي الحديث: (يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء).^٣

^١ - الجامع الصغير، (٣١/٦)، دار الفكر.

^٢ - مشكاة المصابيح، (٤٨٨/٣).

^٣ - رواه الشيرازي عن أنس، والموهبي عن عمران بن حصين، وابن عبد البر في العلم عن أبي الدرداء، ورمز له السيوطي بالضعف، الجامع الصغير، (٤٦٦/٦)، دار الفكر.

إن الجهاد الحقيقي هو أن تجعل من التفرق وحدة، ومن الضعف قوة، ومن الأمية تعليماً، ومن التخلف نظاماً، وتقضي على الفقر والجوع والحرمان، وتعلن حرب إبادة على التخلف والتبعية والانحلال، وهو أيضاً عملية بناء متكامل للأمة المسلمة على وحي من دينها، وسبب من واقع العصر العلمي والتكنولوجي، وهو في النهاية ثورة صناعية كبرى تنهي التخلف والتبعية في الاقتصاد، فألة الحرب اليوم ليست ربحاً وترساً، ولكنها طائرات وصواريخ عابرة للقارات وحاسبات إلكترونية، ودبابات ومدافع وأسلحة ذرية، وهذه كلها لا سبيل لها بغير الثورة الصناعية، وهي أدوات ضرورية لحفظ أمن الأمة وسلامتها.

أما الانحراط في فتن وحروب أهلية، وإثارة النعرات الطائفية، واللعب بالأمن الداخلي، وفتح ثغرات على الأمة أحوج ما تكون إلى سدها، فهذا كله ينم عن عدم فهم للجهاد، وتهور لا مسئول، وسوء تقدير، وقلة تدبير.

ليس الجهاد كلمة سهلة، ولا ادعاء، فلا بد للمجاهد من استكمال ما يريده الإسلام منه قبل أن يصل إلى ذروة الدين، وينبغي أن يكون في كتابات أهل العلم تبصير بمراحل الجهاد وأنواعه وشروطه وآدابه، لأن الرؤية العاطفية للجهاد تضر بالإسلام والمسلمين، فما أحوجنا إلى الرؤية العاقلة المتبصرة لهذه الفريضة العظيمة.

حديث إلى الحقيقة

أيتها الحقيقة!

لماذا نحن البشر فوق هذا الكوكب نحاربك.. نلعنك.. نسحقك تحت الأقدام.. ثم نتباكى عليك في جنح الظلام.

أيتها الحقيقة!

لماذا نكرهك عندما تنبشني أخطأنا ونتمنى قتلك، فإذا كنت في صالحنا أنشدنا لك أعذب الشعر، وتغنينا بجمالك وجلالك.

أيتها الحقيقة!

لماذا تعودنا خيانتك، ندعي حبك على الملاء، ونذبحك في السر، ونراوغ أحياناً بين السر والملاء، فتارة ندعي عشقك، وتارة نريد شنقك؟

أيتها الحقيقة!

تارة نلبسك لباس المومس وأنت شريفة، ونكذبك وأنت صادقة، ونستعبدك وأنت حرة، ونقتلك وأنت الباقية. أيتها الحقيقة التي فتش عنها العقلاء ثم وأدوها، والحكماء ثم علّبوها، والشعراء فسفوها، والطغاة فصفدوها، وأحبار العلم فرموها وراء جدارهم.

لماذا يحقدون على جمالك الذي يغذي الورد والبحر والقمر، ويلعنون دفنك الذي أنبت العشب والكأ، ويشتمون أنسك الذي أذهب الوحشة عن قبور الشهداء؟

أيتها الحقيقة!

لماذا تطاردك الطائرات والمدرمعات والمصفحات، والأقلام والجرائد، والراقصات وهيئات الإغاثة العالمية على أعتاب بيت المقدس؟

لماذا يطاردك إبليس وجنوده، وأنت وحيدة طريدة بلا سلاح ولا مال ولا مأوى ولا هوية!

أيتها الحقيقة!

إذا قال ناصح لبلعام: اتق الله. قال: يا مرتد، وإن قال لفرعون: اتق الله. قال: يا منشق، وإن قال لهامان: اتق الله. قال: قولوها لمولاي، وإن قال لقارون: اتق الله. قال: يا حسود، وإن قال لفاجر: اتق الله. قال يا غبي، وإن قال لمن يبيعها للناس اتق الله. قال: بضاعتنا ردت إلينا.

أيتها الحقيقة!

برغم كل ما يفعله أعداؤك فإن عرشك أعلى منهم جميعاً، يتربع بين السماء والأرض، لا يطاله قذف مدفعي، ولا تسقطه قذائف الطائرات، تشرق كالشمس رغم أنوفهم، وتتطلع إليك قلوب العشاق الذين لا يصددهم عن عشقك شيء.

أيتها الحقيقة التي لا تملك سكيناً ولا خنجر، ولا مدافع ولا عسكر، أنت أقوى وأبقى، مادامت عين الله تكلؤك، وقدره

يحرصك، فسوف تبقيين شوكة في قلب كل لئيم، واتسامة في وجه كل كريم، ولن يقف دون نورك حجاب، وما ذاك إلا لأنك الحقيقة (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) (الأنبياء: ١٨).

يا رب!

يا رب!

إليك أشكو تخلف هذه الأمة التي ضاعت في الدنيا، وضيعت كتابك، حتى أصبحت آخر الأمم.

يا رب!

أصبحت مقدساتنا بيد اليهود، وبلادنا مفتوحة الحدود، يأتيها الغزو من كل مكان، ونحن نلهو ونلعب، ولا نفكر بالمستقبل القاتم.

يا رب!

في كل شبر دماء، وفي كل بلد مصيبة، وبدلاً من أن نبحث عن حل لأزماتنا، نتخاصم حول وجه المرأة أعورة هو أم لا؟ ونقرأ في ثقافة عصر الواد، ونتصارع في عصر الترددي، فهذا سلفي وذاك نقشبندي.

يا رب!

يمارس الطغيان كل ألوان القمع، ونحن نتساءل حول حكم أكل لحم الضبع.

يا رب!

من للأرامل؟ من للأيتام؟ من للفقراء؟ من للمساكين؟ إلاك يا أرحم الراحمين.

يا رب!

نخترع ألف رخصة للتحايل على دينك، وندعي أننا أهل التقوى فلا تفضحنا من فضلك.

يا رب!

أمة لا تجيد إلا الكلام، وتستبدل الأهواء بالأصنام، فكيف يا رباه ينتصر الإسلام؟.

يا رب!

نساء شبه عاريات في الطريق لسن متطرفات، والحرب كل الحرب على المحجبات!

يا رب!

من تمسك بدينه راقبناه، وإن دعا إليه نبهناه، وإن زاد حماسه قاومناه، أهذه أفعال خير أمة أخرجت للناس؟

يا رب!

الجوع ينهش الخلق، والخوف في كل مكان مزروع، والرعب يحيق بالمسلمين من كل صوب، فمتى الفرج؟ متى الفرج؟

مسئولية أهل العلم

العلماء هم قادة الأمة ومشاعل النور فيها، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (النساء: من الآية ٥٩)، وقد جاء في تفسيرها عن ابن عباس وغيره بأن المقصود هو طاعة العلماء، ففي مختصر تفسير ابن كثير: (وقال ابن عباس: أولي الأمر منكم: يعني: أهل الفقه والدين، وكذا قال مجاهد وعطاء: وأولي الأمر منكم يعني العلماء، والظاهر والله أعلم أنها عامة في كل ولي أمر من الأمراء والعلماء كما تقدم)^١، وعموم الآية هو الذي نؤيده، وإن كانت أولوية الطاعة لأهل العلم، لأنهم ورثة الأنبياء.

وقد زكى الله أهل العلم فهم أهل خشيته، قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (فاطر: من الآية ٢٨)، وأرشد إلى سؤال أهل العلم عند الضرورة، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (النحل: ٤٣)، ودعا إلى وجود فئة تتفقه بالدين، فقال: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (التوبة: ١٢٢)، وطلب منهم تبين كتابه، قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُغِضَ مَا يَشْتَرُونَ) (آل عمران: ١٨٧)، وامتدح عباده الذين يقومون بواجب الدعوة ولا يخافون سواه، فقال: (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا) (الأحزاب: ٣٩).

والعلماء لديهم رسالة ينبغي أن يوصلوها ويدافعوا عنها، وهي رسالة التوحيد والتنوير وإقامة ميزان العدل في الحياة، وعليه فينبغي أن تهاجم الأمراء وليس العكس، وأن ينهضوا بعبء الدعوة غير عابئين بما يصيبهم من أذى، فقد تعرض النبي عليه الصلاة والسلام قبلهم وهو قدوتهم لمختلف ضروب الأذى، قال تعالى: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (الأنفال: ٣٠).

ولكن يبدو أن إقبال الناس على العلوم الدينية لم يعد لغرض حمل رسالة الدين، بل صار لمقاصد دنيوية رخيصة، فهذا أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) يهاجم في إحيائه العلماء الذين جعلوا علومهم الدينية وسيلة للمناصب والرئاسة، وأهملوا العلوم الأخرى.. (فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة، ويتهافتون على علم الفقه ولا سيما الخلافات والجدليات، والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى، هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس ييسر الوصول به إلى تولي الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام، وتقلد القضاء والحكومة، والتسلط به على الأعداء)^٢

والعلماء هم أطباء الأمة، وهم الذين يعالجون مشكلاتها النفسية والخلقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، فإذا لم يكونوا أهلاً لذلك وقعت الكوارث بالأمة، وهو ما حصل من عهود بعيدة، يقول الإمام الغزالي: (فإن الأطباء هم العلماء، وقد استولى عليهم المرض، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً،

^١ - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (١/٤٠٨).

^٢ - رجال الفكر والدعوة في الإسلام، للندوي، (١/١٨٥)..

والمرض مزمنًا، واندرس هذا العلم، وأنكر بالكلية طب القلوب، وأنكر مرضها، وأقبل الخلق على حب الدنيا، وعلى أعمال ظاهرها عبادات، وباطنها عادات ومراءات).

ويضيف: (وبالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك، وفساد الملوك لفساد العلماء، فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك خوفًا من إنكارهم) ^١

وكأن الغزالي قد نظر إلى قول النبي عليه السلام في حكمه على فساد الأمة بسبب فساد ملوكها وعلمائها، وهو: (صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس: العلماء والأمرء) ^٢.

وهاجم ابن قيم الجوزية الساكتين عن الحق من أهل العلم، فقال: (وأي دين في من رأى محارم الله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يرغب عنها، وهو بارد القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس. وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة لهم بما جرى على الدين، وخيارهم المتحزن الباكي، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل، وجهد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم، قد بلوا في الدين أعظم بلية تكون وهم لا يشعرون، وهي موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل) ^٣.

وإذا كانت الحالة في الماضي سيئة فهي اليوم أسوأ، قال أحمد محرم: ^٤

أرى علماء الدين لا يحفظونه

ولا يعرفون اليوم رتبته العليا

هم اتخذوا ما يحفظون من علومه

سبيلاً إلى ما يشتهون من الدنيا

فضاعوا وضاع الدين ما بين أمة

هموا شرعوا فيها الضلالة والغيا

إذا المفسد استفتنا يريد تمادياً

أتوه بأعلام الهدى تحمل الفتيا

أعجب قوماً من أولي العلم أنهم

يسيرون بين الناس في نوره عمياً

^١ - رجال الفكر والدعوة في الإسلام، للندوي، (١/١٨٤)..

^٢ - رواه الديلمي وابن عبد البر عن أنس، وسنده ضعيف، فيض القدير، (٤/٢٠٩).

^٣ - رسالة المسترشدين، بتحقيق أبي غدة، ص (٥٤-٥٥)..

^٤ - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، (١/٣٢٧).

إن ظاهرة أهل العلم في عصرنا ظاهرة اجتماعية موجودة في كل دولة إسلامية، فهم في الغالب مجموعة من الموظفين الرسميين يؤدون دورهم من فوق المنبر، كما يؤدي غيرهم من الموظفين مهامهم، وقد حصروا الدين بالأركان الخمسة ومكارم الأخلاق، ويقومون بوعظ العامة وتوبيخها أحياناً، ويررون الواقع المشين بمثل عبارة (أعمالكم عمالكم)، ثم يكيلون الدعاء لولاة الأمور وحماة الإسلام من فوق المنابر. وإذا كانت البلاغة مراعاة مقتضى الحال، فأكثر هؤلاء خارج حدود البلاغة، فبعضهم لا يجيد الفصحى ويكسر قواعد النحو كما يكسر الزجاج الجميل بحجر طفل أو بمقلاع هولاءكو. وبعضهم يرقع العامية بالفصحى، وهو أمر تأباه فطرة هذه اللغة، كما تأبى السماء أن تلتحم بالأرض، والحسنة أن تلبس ثياباً ممزقة.

وهنالك من يتحدث إلى جمهوره بأسلوب الجاحظ والمنتني، والذين أمامه حفنة عوام لا يفهمون مغزى الكلام. وهنالك من يقف أمام المثقفين فيدعوهم بمنطق قطاع الطرق إلى عمل الفتن والمظاهرات وتعكير الأمن العام. وهنالك من لا يشبع من الحديث عن كرامات الأولياء، والعامية أمامه لا تعرف نواقض الموضوع. وهنالك من يدعو للاجتهاد بين مجموعة من الحمقى والمغفلين، ممن لا يجيدون قراءة الفاتحة. وهنالك من يجعل المنبر أداة إعلامية للتحدث عن منجزات السلطة والقضايا الوطنية، وكأنك في محفل قومي أو كرنفال وطني. ويسكن بعض هؤلاء في المسجد، ويعيشون على الصدقات والدعم الشعبي، وقراءة الموالد على أرواح الموتى، وكتابة الرقى والتعاويذ. وبعد: أما أن الأوان لأن ينهض الخطباء من غفلتهم، فالمنابر ليست باباً لكسب الرزق، ولا للعجزة والكسالى والعاطلين عن العمل، ولا الدعاية السياسية. يجب أن يعرف الخطيب أنه مسئول أمام ربه عن كل كلمة يقولها وكل دقيقة تمر، لذا عليه أن يتخذ المنبر أداة لإحياء الأمة لا لتمويتها وترتيل الفاتحة على روحها الشريفة.

إن عودة العلماء لممارسة مهامهم أمر يرتبط بيقظة أمة وصحتها، لتعرف إلى أين تسير.

ومع ذلك نجد من يلتمس الأعذار للعلماء في عدم قول الحق، مما ضيع الأمة، وإنها لمسئولية عظيمة لو كانوا يعلمون!

فتنة المال

المال فتنة لا تقاوم إلا بعون الله تعالى، قال تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (الأنفال: ٢٨)، وقد يمتد فتنة قارون بماله، فقال لمن نصحوه: (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) (القصص: ٧٨)، وفتن بقارون خلق كثير، حتى قال جمع من الناس: (يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) (القصص: من الآية ٧٩)، وهلك قارون فاتعظ به من رأوه، ولم يتعظ به من جاء بعدهم.

وعندما ذهب موسى يناجي ربه، كانت فرصة لأولئك المفتونين بالذهب لكي يعبدوا الذهب على صورة حيوان ثقيل وهو العجل، ففي الظاهر عبدوا العجل، وإنما في الحقيقة عبدوا الذهب، قال تعالى: (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ) (الأعراف: ١٤٨). ونحن اليوم بعد آلاف السنين من تلك الحوادث، يعود المال هو السيد المطلق في الحياة كلها، وهو ما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم: (ليأتين على الناس زمان لا ينفع فيه إلا الدينار والدرهم).^١

فحيث كان المال تهافت عبده من رجال الأعمال كما يتهافت الذباب على أي شيء يحتوي السكر، سواء كان مما تستطيبه النفس أو تستقذره.

حقاً إن المال فتنة، تطيش بسببه الأحلام، وتضطرب العقول، وتقلق النفوس، ويشعر أربابه بعز السلطة والجبروت، وهم في الحقيقة أهون على الله من بيت العنكبوت!

لم يعد المال وسيلة للتواصل بين الناس، بل صار وسيلة حقد، فالفقر يحسد الغني، والغني يعلق التمايم خوفاً من عين الفقير، فما هو العلاج لهكذا مشكلة؟

هل نعود للمقايضة، ونستغني عن الذهب والفضة؟ أم نعود للشيوعية وقد ثبت فشلها؟ أم نطلق العنان للأفراد والشركات الرأسمالية الكبرى في هذا العالم لكي يستثمروا الأموال من عرق الكادحين وجوعهم؟

كلها حلول مرفوضة، وقد أوقعت العالم في أزمة، وليس ثمة حل لهذا الفقر إلا وفق منهج الله في الأرض، فنظرة الإسلام للمال هي أقوم النظرات، فلا يحق للإنسان أن يمتص المال من دماء الآخرين، ولا يجوز للدولة أن تجعل الإنسان سلعة رخيصة كباقي السلع فلا تحوله حق الملكية الفردية، وهو حق معتبر لدى كل الأديان والأعراف الإنسانية، وإنما يستثمر الإنسان المال من الطرق المشروعة ويؤدي حق الله فيه، وهنا يكون المال قربي إلى الله تعالى، قال تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: ٢٦١)، ويكون وسيلة لعمران الحياة، قال تعالى: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (التوبة: ٦٠).

^١ - رواه أحمد عن مقدم بن معدي كرب، مشكاة المصابيح، (٧٤٨/٢).

إن نسبة ٢.٥% وهي نسبة الزكاة تقتضي بشكل نظري أن ينفق الغني ثروته على مدى أربعين عاماً كلها، ولو تم تدوير المال بهذا الشكل، وتم جمع الزكاة بواسطة الحكومات وتوزيعها بواسطة أعضائهم أيضاً، فسنجد أن مشكلة الفقير ستلاشى بمرور قرن من الزمان، ويفيض المال أيضاً كما حصل في عهد عمر ابن عبد العزيز. نتمنى أن يأتي يوم لا يكون هنالك فقير في هذا العالم، ونرجو من الله أن لا يجمع لعباده شر الفقر ونار جهنم في الآخرة، فهو أرحم بعباده من الأم بولدها سبحانه وتعالى.

سبيل الإصلاح

يظن بعض المتحمسين لنشر الخير في هذا العالم أن القوة هي السبيل الوحيد لنصرة الحق مستندين إلى ما حصل من المعارك الكبرى في الإسلام في فجر الدعوة وما تلاها من عصور.

ويجلم هؤلاء بوضع راية الإسلام الحنيف خفاقة فوق كل مكان في المعمورة، بمعنى النصر على الآخر، وإنهاء وجوده بأي صورة، وهذا مخالف لمنطق الحياة الذي هو منطق الإسلام، فالحياة تقتضي التنوع، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (التغابن: ٢)، وبين الله تعالى أن وظيفة النبي الدعوة وليس الإكراه، قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (يونس: ٩٩).

ووجود أعداء للرسول أمر طبيعي، قال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) (الأنعام: ١١٢)، والاختلاف سنة من سنن الحياة، قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) (هود: ١١٨).

وعليه يجب أن لا نحلم كثيراً وأن نكون واقعيين، ونعلم أن أكثر الناس لن يؤمنوا، قال تعالى: (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) (يوسف: ١٠٣)، وقال تعالى: (وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ لِيُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (الأنعام: ١١٦)، والمؤمنون قلة حتى في مملكة النبي داود عليه السلام، قال تعالى: (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ) (ص: ٢٤)، والسبب في انصراف معظم الناس عن الإيمان هو وجود الشهوات التي تحبها النفس، والتي يستخدمها إبليس ليقطع الطريق إلى الله، قال تعالى حكاية عن إبليس الذي يصر على الغواية وتزيينها للناس: (قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْعَدَنَّ لَهُمْ سِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) (الأعراف: ١٦).

ومسألة استخدام القوة كان لها ظروفها التاريخية في فجر الدعوة وما بعده، والقوة عادة ما تستخدم إما دفاعاً عن النفس والأوطان، أو لنصرة المظلوم ونجدة الملهوف، وتكون بالأصل من قبل الحاكم المسلم، إلا في حالة الدفاع عن النفس والغزو الخارجي، وأما استخدامها للعدوان فمرفوض، والإسلام ضد العدوان في كل الأحوال، قال تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (البقرة: ١٩٠).

وعليه فالخير والشر زوجان متناقضان في هذه الحياة بل وفي النفس الإنسانية الواحدة، ولا يستطيع أحدهما أن يلغي الآخر، لأنه لو تم ذلك ذهبت فرصة الابتلاء في هذا العالم، ولما عاد هنالك فائدة من هذا الوجود، قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (المائدة: ٤٨).

فالحياة ليست إلا صراعاً بين الخير والشر، وهذا الصراع لن ينتهي برفع العلم الأبيض من أي من الطرفين، وإنما ينتهي بهزائم محدودة تعقبها انتصارات محدودة، والحياة مد وجزر، وكر وفر بين الناس جميعاً.

ولو جاز أن تكون الحياة خيراً محضاً لما وجدت ظاهرة سلمان رشدي ونسرین النغلاديشية وأمثالهما من المرتدين، ولو كانت شراً محضاً لما وجدت ظاهرة الفنانات العائدات إلى الله تعالى، وعلى هذا الأساس يخطئ من ظن أن الإسلام سينتهي بفعل جلاديه، كما يخطئ من ظن أن الشر سينتهي بسبب الخيول القادمة من الشرق، أو القادمين الحضري، أو الصحوة الإسلامية، لذا لا ينبغي الخوف على مستقبل الإسلام من قبل أبنائه، ولا على مستقبل معارضييه الذين يخترعون هذا الخوف ليجلدوا العالم الإسلامي من خلاله، والذين يؤججون الصراع بين الإسلام وخصومه أيّاً كانت وجهتهم لا يخدمون قضية الإسلام ولا السلام في هذا العالم، فالإسلام ليس خطراً على أحد، فهو نور وهدي، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً) (النساء: ١٧٤)، والنور يهدي البشر ولا يضرهم، ولن تستطيع قوى الشر في العالم كلها أن توقفه، قال تعالى: (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) (الصف: ٨).

والمطلوب من الدعاة المسلمين الدعوة إلى دينهم بالحكمة والموعظة الحسنة، قال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل: ١٢٥)، فلا يشهروا السيف في وجه عامة الناس، ويؤلبوا العالم على المسلمين، وإنما يستخدموا الحكمة والرفق، وينبغي لكل داعية أن يسأل نفسه قبل أن يدعو: هل أصلحت نفسي؟ ومن سأدعو؟ وكيف؟ ولماذا؟ وما هي الوسائل والعواقب؟

إن الذين يلمون بإصلاح الأرض وأن يدفع أهلها الجزية لهارون الرشيد مرة أخرى هم واهمون، فالجزية لم تؤد للمسلمين من كل أصقاع العالم في أوج حضارتهم وقوتهم، فكيف وقد وهنوا وضعفوا؟ حتى صار المؤمن يستعد للعزلة والفرار بدينه من الفتن إلى رؤوس الجبال، ففي الحديث: (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن) ^٢.

ثم إن الناس أميل إلى الهوى والشهوات منهم إلى العقل والهدى، وهذا ما يفسر كثرة أهل النار، روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ((يقول الله تعالى: يا آدم! فيقول لبيك وسعديك، والخير كله في يديك. قال: أخرج بعث النار. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعندها يشيب الصغير (وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)). ^٣

كما أن الذين يلمون باستئصال شوكة الإسلام هم واهمون أيضاً، فالإسلام وإن يكن أهله في ضعف مادي

^١ - أي رؤوسها وأعاليتها.

^٢ - رواه البخاري، انظر: مشكاة المصابيح، (١٤٨٢/٣).

^٣ - متفق عليه، انظر: مشكاة المصابيح، (١٥٣٥/٣-١٥٣٦).

وحضاري، ولكنه قوي فكرياً ومعرفياً، لأن لديه الحق الذي قامت عليه الأرض والسماء، ولذلك يدخل الناس فيه زرافات ووحيداناً على الرغم من كل ما يتعرض له من تشكيك وعدوان.

والحياة ابتلاء، وواجب المصلح أن يقدم ما يستطيعه ولا يتكلف ما لا يطيقه، قال تعالى: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (البقرة: ٢٨٦).

ولا بد أن نشيد في خاتمة هذا المقال بما كتبه الأستاذ الباحث جودت سعيد في كتابه القيم (مذهب ابن آدم الأول) مؤكداً على ضرورة نبذ العنف والعدوان بين الناس، وإذا لم يكن ثمة خيار للمرء بين أن يكون ظالماً أو مظلوماً، فالمظلوم (هاويل) أحب إلى الله من الظالم (قاييل)، فليحذر العاقل عن مبادأة الآخرين بالعداوة، وليعلم أن أفضل الصدقة كف الأذى عن الناس، وخير أسلوب للدعوة هو التحبب إلى الآخرين والابتسام بوجوههم، وبناء جسور التواصل معهم، ليكون الرفق والحوار هو السبيل إلى القلوب والعقول، ولا تكون لغة شريعة الغاب هي لغة الناس، حتى لو كان الطرف الآخر هو صاحب عقلية الإقصاء والإلغاء، فليبق المسلم هو صاحب عقلية الحوار والانفتاح والالتقاء والبناء، لأنه صاحب خطاب متحضر، وينتمي لخير أمة أخرجت للناس.

فن الدعوة

الدعوة إلى الله فن لا يتقنه إلا الماهرون وأولو النهى، وقد ذكر الجاحظ خبراً عن السيد المسيح في هذا الصدد، وهو يتعلق بفن الدعوة، قال: (ورأوا عيسى يخرج من بيت مومسة، فقيل له: يا روح الله! ما تصنع عند هذه؟ قال: إنما يأتي الطبيب إلى المرضى).^١

وهذا الخبر على إيجازه يمثل قاعدة ومنهجاً، فما أكثر ما يتكلم أهل العلم والدين في المساجد، ينصحون ويخطبون، ولكن لا يسمعونهم إلا رواد المساجد، ومن هم رواد المساجد؟ إنهم من عامة المسلمين، وأما الطبقة الفاسدة في المجتمع فهي نادراً ما تتراد المساجد، لأنها اعتادت أن تكون من رواد المقاهي وأماكن اللهو، أو السجون أو الحانات، ونحو ذلك، وهذه الطبقة الفاسدة هي التي تقوم بالجرائم الكبرى من قتل وفجور وتهريب مخدرات ونصب واحتيال ونحو ذلك، فإذا بقيت معزولة عن الهدى، ولم يأت من يهديها، استفحل خطرها، وأصبحت تهدد أمن المجتمع، ولا ينفعها ردع ولا عقوبة، وقد يذهب رجال الأمن ضحايا أثناء مطاردة أفرادها، ولذلك ينبغي تقويم هذه الطبقة بشتى السبل الممكنة. والزياره المباشرة هي إحدى وسائل التقويم، بل هي أنجع الوسائل، فالداعية إلى الله هو الطبيب، وأهل الجريمة هم المرضى، وإذا لم يستطع المريض الذهاب إلى الطبيب، فلا بأس من أن يُستدعى الطبيب لزيارة المريض، وهذا ما فعله السيد المسيح عليه السلام، ولا يضير نبياً طاهراً مطهراً مثله أن يقوم بزيارة أهل المعاصي ليعظهم ويذكرهم بالآخرة لعلهم يتوبون إلى الله تعالى.

وفي هذا الخبر فوائد أربع، هي:

الأولى: لا يقدر بشخصية الداعية أن يذهب إلى أهل الفساد في عقر دارهم لينصحهم، بل هذا من واجبه، ويجب أن يكون معه بعض تلاميذه ليساعدوه في هذه المهمة، وإذا قصد مجالس النساء فلا بد من وجود المحرم إذا كان هنالك خلوة.

الثانية: ضرورة العناية والشفقة بأهل المعاصي، فهم مرضى، والمريض بحاجة إلى رعاية، وأما العنف والشدة في الموعظة والمعاملة فقد يكون له تأثير سلبي إذا كان يتم بشكل متواصل، ولكن الشدة في بعض الأحيان قد تكون ضرورة، والأصل هو اللين، قال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل: ١٢٥).

^١ - البيان والتبيين، (٣/١٤٠). مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

الثالثة: ضرورة التواصل مع الطبقة الفاسدة في المجتمع ونصحها، وعدم تركها فريسة للشيطان، فكم من صاحب معصية يحتاج من ينير له طريق العودة إلى الله، والله تعالى هو الذي يغفر الذنوب جميعاً، قال تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ) (الزمر: ٥٣).

الرابعة: ضرورة العناية بالمرأة بشكل خاص، لأنها أكثر عاطفة من الرجل، فهي أسرع في قبول الخير إذا وجدت من يدها عليه، وصالح المرأة يستتبع صلاح الأسرة والمجتمع.

ما أحوج دعواتنا إلى الرفق، وإلى كسر الحاجز بينهم وبين الناس، لكي يقودوا البشرية إلى الله تعالى، فالإسلام دين الرحمة والتسامح والمحبة والسلام، قال تعالى: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) (الأعراف: من الآية ١٥٦).

أهمية الرأي الآخر في صناعة الحضارة

من المؤكد أن بعد كتاب الله تعالى، وكلام نبيه المعصوم عليه الصلاة والسلام لا عصمة لأحد من البشر، لذا لا بد من التسديد والنصيحة، فلا أحد يملك الحقيقة المطلقة، أو يلم بكل شيء، والإنسان يستدرك ضعف رأيه برأي ومساعدة إخوانه من البشر، ولذلك قال أبو بكر في أول خطبة له: (إن رأيتموني على خير فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدوني).

والأنبياء هم أكمل البشر وأفضلهم وأقومهم رأياً ومنهجاً وبصيرة، وعلى الرغم من أن الأنبياء عليهم السلام هم أكمل البشر فقد استمعوا للرأي الآخر، سواء كان من طرف معاد لهم أو صديق، وذلك حتى يعلموا البشرية آداب الاجتماع والحوار والتعاون والتوجيه، ولكي يكون المجتمع أسرة واحدة على مختلف اتجاهاته، وإنما كان أعداؤهم صما لا يستمعون للحق، قال تعالى على لسان نوح: (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) (نوح: ٧). فهل ثمة تخلف وقلة أدب من أن تصك أذنيك لكي لا تسمع محدثك؟

والرأي الآخر ليس بالضروري أن يكون معادياً أو هداماً كما يحسب بعض الناس، فقد يكون ناصحاً وأميناً، يريد مصلحة الأمة، ولذلك فهو يعد في هذه الحالة ضرورة لحياة الأمة واستمرارها، لذا ينبغي قبوله على ما فيه من مرارة وعلقم لأنه شفاء في النهاية، يقول النبي عليه السلام: (إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: إنك ظالم، فقد تودع منهم). أي لا خير فيهم إذا سكتوا عن قول الحق خوفاً من القمع والأذى.

وإذا كان الرأي الآخر خليق بالاستماع إليه من قبل السلطان وهو بمثابة الرائد الأول والأب لمجتمعه، فمن باب أولى من دونه من الناس مروراً بالمدرسة والأسرة حتى أصغر فرد في المجتمع، فعلى الجميع أن يسمع بعضهم بعضاً، ويتحاوروا فيما بينهم، وهذه من أهم صفات المجتمع المتحضر.

و ينبغي على أهل الثقافة والعلم والدين أن يكونوا في طليعة الناصحين، ولا يكتفوا بتدبيح الدعاء إلى من يهمله الأمر في الخطب والمناسبات الدينية، فالدعاء لا يغني عن النصيحة وليس بديلاً لها، وعلى أهل العلم أن يتقبلوا الاستماع إلى آراء الآخرين، ويكونوا محل التوجيه والتقويم والتسديد للسائلين، ولا يضيقوا صدرًا بآراء غيرهم، بل يكونوا محل الأبوة والتسامح أسوة بالنبي محمد الذي جاءه شاب يريد أن يسلم مع احتفاظه بحق ممارسته للزنا، فلم يقطع النبي رأسه، أو يلجم فمه ويسكته، وإنما وجهه وعلمه، وجعله يخرج من عنده مؤمناً والزنا أبغض شيء إليه في الحياة، فالتعليم والتوجيه هو الذي يهذب الناس وليس الكبت والمنع والقمع، يجب أن يقول الناس ما في خلدتهم، ويجب أن نقوم ونوجه ما يقولون بعد ذلك، قال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِثُهُمْ بِالنِّبَاتِيِّ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل: ١٢٥)

والذين يجاملون الآخرين، ولا يذكرون لهم عيوبهم، ويبدون بصورة الموالين وبخاصة للظالم المستبد خوفاً من بطشه، هم الذين يدقون نعش ذاك المستبد، وينفضون عنه في المواقف الصعبة، وفي التاريخ أمثلة كثيرة، وذلك لأن العدل أساس الملك، فإذا ذهب العدل أعقبه ذهاب الملك، والعكس أيضاً صحيح، فالناصرحون الذين يبدون بصورة الأعداء، هم

الذين يرشدون المستبد إلى الصواب، فيعمدون إلى تثبيت حكمه بالعدل، لو استمع إليهم ولم يصم أذنيه عن سماعهم، يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني محملاً لموقف الناس تجاه ذوي النفوذ، وأن الموالي لهم على باطلهم هو أضر عليهم في الحقيقة ممن يعاندهم: (إنك ترى الظالم المجترئ على الأفعال القبيحة يدعي لنفسه الفضيلة، بأنه مديد الباع، طويل اليد، وأنه قادر على أن يلجئ غيره إلى التظامن له، ثم لا يزيد احتجاجه إلا حزياً وذلاً عند الله وعند الناس، وترى المصدق له في دعواه أذم له وأهجى من المكذب، لأن الذي صدقه أيس من أن ينزع إلى الإنسانية بحال، والذي كذب رجا أن ينزع عند التنبيه، والكشف عن صورة القبيح).

ولقد قدر الله سبحانه الفناء على الدول والممالك جميعاً، قال تعالى: (وإن من قرية إلا ونحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً) والتدمير له سنة خاصة به، وضحتها آية أخرى، قال تعالى: (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً). فرؤوس القرى من سلاطين ومترفين وأعوانهم، هم سبب الهلاك، حين ينفردون بالأمر، ويقعون بالتزلف، ويرفضون النصيحة، ويحاربون أصحابها، فيقع البلاء على الجميع، ويتم الهلاك العام.

والدول لها أعمار كما للأفراد، فإذا اكتملت تأكلت بعد ذلك، وشرعت في الهلاك، قال الشاعر:

إذا تم أمر بدا نقصه

توقع زوالاً إذا قيل تم

ولذلك يعتبر التمام نذير هلاك، وعندما تركد حياة الأمة، وتموت فاعليتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، تستشري فيها مسببات الهلاك الداخلي، والفناء التدريجي، فإذا لم يحدث التغيير من الداخل لتفعيل حياة الأمة، يأتي العدوان الخارجي ليزيل هذا الركود، ويجهز على الأمة حقبة من الزمن، لكي تأتي أجيال أخرى تبدأ رحلتها جديدة مع الحياة، وذلك لأن الأمم يقرب بعضها بعضاً، فإذا وجدت أمة قوية أخرى ضعيفة متآكلة، لم تتردد في سحقها، وهذا يفسر لنا سبب حملة التتار على الشرق العربي، الذي جمدت الحياة السياسية فيه، فجاءت سيوف التتار لتدك معاقل الأمة في عقر دارها، ولقد جاء في رسالة هولوكو إلى صاحب دمشق:

أين المفر ولا مفر لهارب

ولنا البسيطان الثرى والماء

ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت

في قبضتي الأمراء والخلفاء

ونحن إليكم صائرون، ولكم الهرب، وعلينا الطلب.

ستعلم ليلي أي دين تداينت

وأي غريم بالتقاضي غريمها

دمرنا البلاد، وأيتمنا الأولاد، وأهلكنا العباد، وأذقناهم العذاب، وجعلنا عظيمهم صغيراً، وأميرهم أسيراً. [طبعا هولوكو

لا يجيد الشعر، وإنما من مساعديه أو من بعض المثقفين المتبرعين بمساعدته].

لقد أصم بعض الساسة آذانهم عن سماع كلمة الحق في تلك العهود، وكدلوا شعوبهم بالرقابة والمحاسبة، وآثر الصالحون العزلة والفرار بالنفس من مواجهة المجتمع، فتآكل المجتمع العربي من داخله، وجاء التتار لإكمال الحلقة الأخيرة في مسلسل الانهيار، ولو كانت الأمة ذات وجود سياسي فاعل، وكانت هنالك محاسبة ومراجعة ومراقبة، لما حدثت مأساة التتار التي قصمت ظهور المسلمين.

وصفوة القول: هي أن كلمة الحق، وفتح باب الحرية للناس، لكي ينصحوا بدلا من أن يصفقوا، ويقولوا رأيهم بدلا من أن يتحولوا إلى قطيع مسلوب الإرادة، هو الذي يثبت الملك، ويطيل عمر الأمة، ويمدها بالبقاء، والأخطاء المتراكمة، والأمراض المزمنة، هي التي تزيل الملك في النهاية، وتذهب بالعمران كما ذكر ابن خلدون، ولو تم علاجها قبل أن تستفحل، وتقبل الولاة ما يقوله الناصحون لهم وليس المصفقون والمهرجون، لكانت دولهم تقوم على أسس ودعائم صلبة تستعصي على الرياح العاتية، ولا تجرفها الرمال، قال تعالى: (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ) (الرعد: من الآية ١٧).

نسأل الله أن يحفظ بلاد العرب والمسلمين من كل فتنة، ويوحد صفوفهم ويصلح أحوالهم ويجمعهم على الحق إنه

سميع مجيب

من آثار المؤلف

أولاً: الكتب المطبوعة

- ١- أهمية الإيمان وآثاره في بناء الفرد والمجتمع، مكتبة الثقافة بمكة، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م. وقد قدم له الشيخ السيد سابق، والدكتور عبد الله علوان.
 - ٢- في ظلال اليرموك، مسرحية ضمن سلسلة مسرحيات تاريخية هادفة، قرظها الدكتور عوض الله الداروتي، ونوهت بها مجلة التجديد (ماليزيا)، ومجلة إسلامية المعرفة (أمريكا)، ومجلة الأدب الإسلامي بالرياض. ماليزيا ١٩٩٧ م. وصدرت الطبعة الثانية، عن دار المنار بدمشق، ودار القرآن الكريم بيروت ٢٠٠١ م.
 - ٣- الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، ضمن سلسلة مسرحيات تاريخية هادفة، وقرظها الأستاذ الدكتور مجاهد مصطفى بهجت، ونوهت بها مجلة التجديد (ماليزيا)، ومجلة إسلامية المعرفة (أمريكا)، ومجلة الأدب الإسلامي بالرياض. ماليزيا ١٩٩٧ م. وصدرت الطبعة الثانية، عن دار المنار بدمشق، ودار القرآن الكريم بيروت ٢٠٠١ م.
 - ٤- الإمام الطيبي حياته وجهوده العلمية، نشر دار (FAJAR ULUNG SDN.BHD) ماليزيا ١٩٩٨ م. وقد قدم له الشيخ علي الطنطاوي، والأستاذ الدكتور عبد اللطيف خليف نائب مدير جامعة الأزهر الشريف.
 - ٥- فتح الجليل للعبد الذليل، للسيوطي، (تحقيق) نشر دار (FAJAR ULUNG SDN.BHD) ماليزيا ١٩٩٨ م. وقرظه الأستاذ الدكتور عبد القهار العاني، رئيس قسم الدراسات القرآنية والحديثية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وتم طبعه للمرة الثانية بدار اقرأ دمشق، ٢٠٠٢ م.
 - ٦- اتجاهات تجديدية متطرفة في الفكر الإسلامي المعاصر، عن دار المنار بدمشق، ودار القرآن الكريم بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م.
 - ٧- فن التشبيه في الشعر العباسي، دراسة تحليلية للعوامل المؤثرة في صور التشبيه في العصر العباسي، وتطور تلك الصور وقيمتها الأسلوبية من خلال مختارات البارودي، (رسالة دكتوراة) دار اقرأ، دمشق، ودار الأمان، أبو ظبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.
 - ٨- سلسلة دراسات حضارية استراتيجية، صدر منها أربعة أجزاء عن دار اقرأ ودار التوفيق بدمشق وبيروت ٢٠٠٣ م.
- الجزء الأول: في ظلال السنة
- الجزء الثاني: القيم الحضارية العليا في الدعوة الإسلامية (في الأصل بحث محكم)
- الجزء الثالث: منهجية القرآن في التعامل مع آراء معارضيه (في الأصل بحث محكم)
- الجزء الرابع: قراءة موضوعية في جذور العلاقات التاريخية بين الإسلام واليهودية (في الأصل بحث محكم)

٩- الاتجاه المعاكس في الأدب العربي، دار قتيبة، دمشق، بيروت، ٢٠٠٣م.

ثانياً: البحوث المحكمة في المجالات العلمية المحكمة

م	اسم البحث	مجال البحث	جهة النشر	بيانات النشر	مكان النشر	عدد الصفحات
١	من الأصول المنهجية في تحقيق التراث الإسلامي، دراسة تطبيقية على تحقیقات كتاب التبیان فی البیان للإمام الطیبی وتحقیقاته الثلاثة المختلفة	تحقیق التراث البلاغی	حولیة الجامعة الإسلامیة العالمیة بباكستان	العدد السابع، لعام ١٩٩٩م.	إسلام آباد باكستان	(٢٦٨-٢٠٧)
٢	قضايا علمية حول تحقیق كتاب الكاشف عن حقائق السنن للإمام الطیبی	تحقیق التراث	مجلة عالم الكتب	العددین الثاني والثالث من المجلد (٢١). يناير وفبرایر ومارس وأبریل، ٢٠٠٠م.	الرياض السعودیة	(١٩٨-١٨٥)
٣	ضوابط إسلامیة فی الأغراض الشعریة	النقد الأدبی	مجلة إسلامیة المعرفة	المعهد العالمی للفکر الإسلامی بواشنتون، العدد ١٢ السنة الثالثة، ١٤١٨-١٤١٩هـ = ١٩٩٨م	واشنتون أمریکا	(٢١٤-١٩٢)
٤	التجدید فی منهجیة التفسیر بین الزمخشري	التفسیر البلاغی	مجلة الشریعة	جامعة الكويت، العدد (٤٥)، یونیو،	الكویت الكویت	(٨٨-٢١)

		٢٠٠١ م.	والدراسات الإسلامية		وسيد قطب، دراسة تحليلية تطبيقية مقارنة	
(١٩-١)	كوالالمبور ماليزيا	الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وذلك في يوم ١٩/١٠/١٩٩٦ م، وقد تم نشر دراسة عن هذا البحث في صحيفة أخبار العرب في حلقتين، ٢٠- ٢١/٥/٢٠٠١ م.	بحث مقدم لندوة الإسلام ية في اللغة العربية وآدابها	النقد الأدبي والأدب الإسلامي	أضواء على الأدب الإسلامي	٥
(٤٠-٥)	الشارقة الإمارات	اتحاد كتاب الإمارات، العدد ١٣ لسنة ٢٠٠٠ م.	مجلة دراسات	فلسفة الحضارة	القيم الحضارية العليا في الدعوة الإسلامية	٦
(٣٢١-٢٧٧)	الرباط المغرب	يصدرها اتحاد المؤرخين المغاربة، نشر في العدد ١٩/صيف ٢٠٠١ م.	مجلة التاريخ العربي	تفسير التاريخ	قراءة موضوعية في جذور العلاقات التاريخية بين الإسلام واليهودية	٧
(٣٩٧-٣٢٧)	ليدز بريطانيا	نشر في العدد ٢٣ الصادر في شهر ٧ من عام ١٤٢٢ هـ.	مجلة الحكمة	الفكر الإسلامي	شبهات معاصرة حول المصادر الأساسية للتشريع الإسلامي	٨
(١٨٠-١٥١)	الشارقة الإمارات	اتحاد كتاب الإمارات، العدد ١٥ لعام ٢٠٠١ م.	مجلة دراسات	الدراسات القرآنية الأدبية	منهجية القرآن في التعامل مع آراء معارضيه	٩

١٠	الشعر السياسي المعارض في العصرين الأموي والعباسي (قراءة نقدية)	النقد الأدبي	مجلة التاريخ العربي	يصدرها اتحاد المؤرخين المغاربة، نشر في العدد ٢١ أبريل ٢٠٠٢ م.	الرباط المغرب	(٩٧-١٤٩)
١١	مسائل بلاغية ونقدية في شرح السهيلي لسيرة ابن هشام	الدراسات البلاغية	مجلة علوم الشريعة واللغة العربية وآدابها	جامعة أم القرى في المجلد ١٤ العدد ٢٤ شهر ٣ لعام ١٤٢٣ هـ، أيار ٢٠٠٢ م.	مكة السعودية	(١١٥١- ١٢٣١)
١٢	الرسل والأنبياء ضحايا الظلم والعدوان.	الدراسات القرآنية الأدبية	مجلة الحكمة	نشر في العدد ٢٥ شهر رجب ١٤٢٢ هـ/سبتمبر ٢٠٠٢ م.	مانشستر بريطانيا	(٢٦٧-٣٤٢)
١٣	عيوب الكلام في تراث العرب رشح لندوة عيوب اللغة والنطق والمقامة في الجامعة الأردنية ٢٤-٢٥ نيسان ٢٠٠٢ م.	البلاغة والنقد	مجلة التاريخ العربي	يصدرها اتحاد المؤرخين المغاربة العدد ٢٤ خريف ٢٠٠٢ م.	الرباط المغرب	(٩-٦١)
١٤	التحديات التي تواجه اللغة العربية في العصر الحديث	الظاهرة اللغوية	مجلة التاريخ العربي	يصدرها اتحاد المؤرخين المغاربة العدد ٢٥ شتاء ٢٠٠٣ م.	الرباط المغرب	(٣٤٩-٣٧١)
١٥	مسائل علم المعاني في كتاب (فيض	الدراسات	مجلة علوم	جامعة أم القرى نشر في المجلد ١٥ العدد	مكة السعودية	

		٢٧ جمادى الثانية ١٤٢٤ م.	الشريعة واللغة العربية وآدابها	البلاغية	القدير شرح الجامع الصغير) للمناوي.	
(٤٨١-٥٤٢)	مانشستر بريطانيا	العدد ٢٧ جمادى الثانية ١٤٢٤ هـ آب ٢٠٠٣ م.	مجلة الحكمة	الدراسات البلاغية والنقدية	مسائل بديعية ونقدية في الحديث النبي من خلال كتاب (فيض القدير شرح الجامع الصغير) للمناوي.	١٦

بحوث محكمة تحت النشر

- ١- بحث محكم لدى مجلة التاريخ العربي بالمغرب، وتم قبوله بعنوان: البعد المعرفي في دولة الإمارات العربية المتحدة. سينشر في العدد (٢٨) إن شاء الله.
- ٢- مسائل علم البيان في كتاب (فيض القدير شرح الجامع الصغير) للمناوي. مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية، سينشر في العدد (٢٨) إن شاء الله.
- ٣- معركة القرآن مع الجمود والتخلف، مجلة الحكمة، بريطانيا.
- ٤- بحث محكم لدى مجلة التاريخ العربي بالمغرب، وتم قبوله بعنوان: قراءة موضوعية في جذور العلاقات التاريخية بين الإسلام والمسيحية.

وهناك العديد من البحوث المحكمة تحت النشر، والعديد من البحوث والمقالات الأخرى المنشورة في الصحف والمجلات، للاطلاع عليها يمكن زيارة موقعنا على الشبكة:

www.dmr.50g.com

والله الموفق